صِفَاتُ المُنَافِقِيْنَ

فِي ضَوْءِ سُوْرَةِ التَوْبَةِ

إِعْدَادُ:

د. مُحَمّدِ بنِ سريِّعِ بنِ عبدِ اللّهِ السّريِّعِ

الأُسْتَاذِ المُشَارِكِ فِي كُلِيْة أُصُوْلِ الدِّيْن بِجَامِعَةِ اْلإِمَامِ مُحَمَّدِ بْنِ سُعُودٍ اْلإِسْلَامِيَّةِ

المقدمة

إن الحمد لله نحمده و نستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا , من يهده الله فلا مضل له , ومن يضلل فلا هادي له , وأشهد أن لا إله إلا الله, وحده لا شريك له , وأشهد أن محمداً عبده ورسوله:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾آل عمران/102

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ النساء/1.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (70) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ الأحزاب/70-71

وبعد/

فإن من مقاصد القرآن بيان سبيل الكافرين ومنهج الظالمين وصفات المجرمين ليحذرهم أهل الإيمان ويكونوا بمنأى عن طريقهم وجادتهم: ﴿ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآَيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ الأنعام/55.

والنفاق والمنافقون من طرق الضلال التي جلاَّها القرآن وأوضحها، وأبان صفات أهلها وأبرزها، "وقد هتك الله سبحانه أسرار المنافقين، وكشف أسرارهم في القرآن، وجلّى لعباده أمورهم؛ ليكنوا منها ومن أهلها على حذر، وذكر طوائف العالم الثلاثة في أول سورة البقرة: المؤمنين والكفار والمنافقين، فذكر في المؤمنين أربع آيات، وفي الكفار آيتين، وفي المنافقين ثلاث عشرة آية؛ لكثرتهم وعموم الابتلاء بهم، وشدة فتنتهم على الإسلام وأهله، وهم أعداؤه في الحقيقة، يخرجون عداوته في كل قالب يظن الجاهل أنه

علم وإصلاح، وهو غاية الجهل والإفساد.

فلله كم من معقلٍ للإسلام قد هدموه؟ وكم من حصنٍ له قد قلعوا أساسه وخربوه؟ وكم من عَلَمٍ له قد طمسوه؟ وكم من لواءٍ له مرفوع قد وضعوه؟ وكم ضربوا بمعاول الشبه في أصول غراسه ليقلعوها؟ وكم عَمّوا عيون موارده بآرائهم ليدفنوها ويقطعوها؟

فلا يزال الإسلام وأهله منهم في محنة وبلية، ولا يزال يطرقه من شبههم سرية بعد سرية، ويزعمون أنهم بذلك مصلحون﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾البقرة/12" [1]

فالتعرف على صفات المنافقين وأخلاقهم مطلوب لأمور، أهمها:

أولاً: المقدار الكبير الذي احتله الحديث عن صفات المنافقين , سيما في سورة التوبة .

ثانياً: ليحذر المؤمن الوقوع فيها أو التلبس بها وهو لا يشعر؛ إذ النفاق داءٌ خفيٌّ قد يتسلل للإنسان وهو لا يدري، ولقد كان السلف الصالح على جلالة قدرهم، وعلو مكانتهم يخافون النفاق على أنفسهم، كما قال ابن أبي مليكة: "أدركت ثلاثين من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كلهم يخاف النفاق على نفسه"[2]، ويقول الحسن البصري: "ما أمنه إلا منافق، وما خافه إلا مؤمن"[3].

ثالثاً: ليتعرف المؤمنون على أهل النفاق ويحذروا سبيلهم، ويأمنوا مكرهم وكيدهم، فلا يروج مكر المنافقين على المؤمنين ، ولا ينالون منهم ولا من دينهم؛ إذ التعرف على أحوال الأعداء وصفاتهم هو السبيل لأمن مكرهم ورد كيدهم.

---

(1) مدارج السالكين (347/1).

(2) أورده البخاري معلقا بصيغة الجزم ,كتاب الإيمان , باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر .

(3) أورده البخاري الموضع السابق ,قال :ويذكر عن الحسن وساق الأثر.

خطة البحث:

وقد انتظمت خطة البحث في مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة وفهارس.

المقدمة: وبينت فيها أهمية الموضوع، وخطة البحث.

المبحث الأول: صفات المنافقين في العقيدة.

وفيه سبعة مطالب:

المطلب الأول: محادة الله تعالى.

المطلب الثاني: الرياء وطلب رضا الناس.

المطلب الثالث: نسيانهم الله تعالى.

المطلب الرابع: عدم الرضا بحكم الرسول صلى الله عليه وسلم.

المطلب الخامس: استهزاؤهم بالرسول صلى الله عليه وسلم وبالمؤمنين.

المطلب السادس: الفِسق.

المطلب السابع: عدم الانتفاع من الآيات.

المبحث الثاني: صفات المنافقين في العبادة.

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: الفرح بالمعصية.

المطلب الثاني: كراهية الطاعة.

المطلب الثالث: الكسل في الصلاة.

المطلب الرابع: الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف.

المبحث الثالث: صفات المنافقين في الخُلق والسلوك.

وفيه سبعة مطالب:

المطلب الأول: الكذب.

المطلب الثاني: الجبن.

المطلب الثالث: قبض الأيدي.

المطلب الرابع: الغدر.

المطلب الخامس: عدمَ الفقه.

المطلب السادس: الفرح بمصائب المؤمنين.

المطلب السابع: إخلاف الوعد.

الخاتمة.

الفهارس.

منهج البحث:

وقد سلكت في كتابة البحث المنهج الاستقرائي التحليلي، فاستقرأت صفات المنافقين الواردة في سورة التوبة، ثم عدت إلى تحليلها، مبيناً كيف عرضها القرآن، مستعيناً –بعد الله– بكتب التفسير وأقوال أهل العلم.

وأما طريقة الكتابة في البحث فعلى النحو التالي:

✹ خرجت الآيات القرآنية من سورها مبيناً أرقامها.

✹ خرجت الأحاديث النبوية من مظانها، فإن كان الحديث في الصحيحين اكتفيت بتخريجه منهما، وإلا فإني أجتهد في تخريجه من كتب السنة مع الحرص على نقل كلام أهل الشأن من المتقدمين والمتأخرين في الحكم عليه.

❋ خرجت آثار الصحابة رضي الله عنهم والتابعين – رحمهم الله– من مصادرها الأصلية.

❋ وثقت النقول إلى أصحابها، ببيان مراجعها.

❋ أخرت ذكر بيانات المراجع إلى فهرس المراجع طلباً للاختصار.

❋ لم أترجم للأعلام طلباً للاختصار –أيضاً–.

هذا ، وأسأل الله أن ينفع بهذا البحث، وأن يجعله زلفى لدينه، إنه سميع مجيب. وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المبحث الأول

صفات المنافقين في العقيدة

وفيه سبعة مطالب:

المطلب الأول: محادة الله تعالى.

الطلب الثاني: الرياء وطلب رضا الناس.

المطلب الثالث: نسيانهم الله تعالى.

المطلب الرابع: عدم الرضا بحكم الرسول صلى الله عليه وسلم.

المطلب الخامس: استهزاؤهم بالرسول صلى الله عليه وسلم وبالمؤمنين.

المطلب السادس: الفِسق.

المطلب السابع: عدم الانتفاع من الآيات.

المطلب الأول:
محادة الله تعالى

إن من أبرز صفات المنافقين محادة الله تعالى ، قال تعالى بعد حكاية بعض مخازيهم: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ التوبة/ 63.

وأصل المحادَّة: المخالفة والمحاربة والمعاندة والمعاداة والممانعة[1].

وهذه الأمور – لعمرو الله – قد اجتمعت في المنافقين جميعا .

وأما أبرز مظاهر محادتهم الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم فتبدو فيما يلي :

أولاً: خروجهم من الإيمان بعد أن دخلوا فيه , وهو لا شك جرم عظيم , أعظم من الكفر الأصلي , لأن الإنسان السوي إذا ذاق طعم الإيمان لا يمكن أن يعود عنه , كما قال هرقل حين سأل أبا سفيان رضي الله عنه: " هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فقال أبو سفيان: لا . قال هرقل: وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب"[2] , ولكن المنافق يرتكس مرة أخرى في الضلال فيستبدل الكفر بالإيمان , ولذا كان حقا أن يكون في الدرك الأسفل من النار .

---

(1) انظر: التفسير الكبير (122/8) , مفردات ألفاظ القرآن الكريم (222) ,إرشاد العقل السليم (78/4) .

(2) رواه البخاري كتاب بدء الوحي , رقم (7) , ومسلم , كتاب الجهاد والسير , باب كتابة النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل رقم (1773).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: " ولهذا ذم الله المنافقين لأنهم دخلوا في الإيمان ثم خرجوا منه بقوله تعالى:﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ إلى قوله: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ المنافقون / 1–3" [1].

ثانياً: الخداع بإظهار الإيمان وإبطان الكفر , الذي هو جريمتهم الكبرى وانحرافهم الأعظم وهو ناتج عن فساد اعتقادهم في الله تعالى , وإلا فكيف يظن الإنسان الضعيف المسكين أنه يخدع جبار السماوات والأرض , الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات والأرض , ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ البقرة / 9.

ثالثاً: جهلهم بالله تعالى حيث ظنوا فيه الظن السيئ , وحسبوا أنه تعالى يخذل عباده المؤمنين ويسلمهم للأعداء وينصرهم عليهم , كما قال قائلهم عن المسلمين في خروجهم لتبوك: " أتحسبون أن قتال بني الأصفر كقتال غيرهم ؟ والله لكأني بكم غداً تقادون في الحبال " [2].

وهذا دأبهم في تعاملهم مع الله تعالى لا يقدرونه حق قدره , كما قال تعالى عنهم في غزوة أحد: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ آل عمران/153وهذا الظن قد ألحقهم بالمشركين أعداء الله المجاهرين: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾الفتح /6

وهذا الظن ناتج عن كفرهم بالله تعالى وكونهم يقيسون الأمور بالمقياس المادي المجرد, ولذلك فهم يظنون في كل مرة أنها الجولة الأخيرة , وأن المسلمين بعدها لا تقوم لهم

(1) مجموع الفتاوى (272/7).

(2) الدر المنثور (231/4) .

قائمة: ﴿ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴾ الفتح / 12 , ولذا فلما ادلهمت الخطوب , واشتد الأمر عليهم في غزوة الأحزاب وحاصر المشركون المدينة قالوا قالة السوء والكفر: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ الأحزاب / 12 .

هذه حالة المنافقين من سوء الظن بالله والتكذيب بما أخبر به رسوله صلى الله عليه وسلم من النصر والتمكين , في الوقت الذي يتلقى فيه المؤمنون البشريات من الرسول صلى الله عليه وسلم بفتح فارس والروم واليمن [1] يتلقونها – وهم خائفون محصورون بالتسليم والتصديق فتتنزل على قلوبهم برداً وسلاماً .

رابعاً: ومن محادتهم الله تعالى طلبهم الحثيث الرضا ممن لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً , ولا خيراً ولا شراً من البشر , فيسعون لذلك بكل ما أوتوا من قوة وبكل ما يمكنهم من أساليب وطرق , مع غفلتهم عن رضا الله تعالى الذي خلقهم ورزقهم وهو المتصرف فيهم , الذي ينفعهم رضاه ويضرهم سخطه .

خامساً:

محادتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ بتكذيبه والاستهزاء به وتمني هزيمته والقضاء عليه وتأليب الأعداء عليه وعلى أتباعه من المهاجرين والأنصار , يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: " فالنفاق يقع كثيراً في حق الرسول صلى الله عليه وسلم , وهو أكثر ما ذكره الله في القرآن من نفاق المنافقين في حياته " [2].

(1) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (242/3) .

(2) مجموع الفتاوى (639/7) .

سادساً: ومن محاربتهم لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم موالاة أعدائه من المشركين وأهل الكتاب , يقول الله تعالى: ﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴾ المائدة/ 52 .

قال الطبري – رحمه الله – : " ذلك من الله تعالى ذكره خبر عن ناس من المنافقين كانوا يوالون اليهود والنصارى , ويَغُشُّون المؤمنين , ويقولون: نخشى أن تدور دوائر – إما لليهود والنصارى , وإما لأهل الشرك من عبدة الأوثان أو غيرهم – على أهل الإسلام, أو تنزل بهؤلاء المنافقين نازلة فيكون بنا إليهم حاجة ..."[1].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: " والمفسرون متفقون على أنها نزلت بسبب قوم ممن كان يظهر الإسلام وفي قلبه مرض , خاف أن يُغلب أهل الإسلام فيوالي الكفار من اليهود والنصارى وغيرهم " [2].

سابعاً: ومن محادتهم الله تعالى مخالفتهم لشرعه وعصيانهم لأمره تعالى , فإذا أمروا بالنفقة والبذل في سبيل الله لم ينفقوا .

وإذا دعوا إلى الجهاد في سبيل الله لم يخرجوا .

ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى .

ولا يذكرون الله إلا قليلا .. وغير ذلك من مظاهر العصيان والمخالفة والمحادة لله تعالى.

---

(1) تفسير الطبري (512/8)

وانظر: الدر المنثور (350/5) , تفسير البغوي (68/3) , تفسير ابن كثير (124/3)

.

(2) مجموع الفتاوى (194/7) .

المطلب الثاني:

الرياء وطلب رضا الناس

إن القارئ في سيرة المنافقين لا يعجزه أن يكتشف – وبوضوح – أن أعمالهم لا يقصدون بها وجه الله تعالى , وإنما هي ركام من الرياء .

كيف لا ؟ ولم يعمر الإيمان نفوسهم أصلا , ولم يخالط بشاشة قلوبهم , فهم لا يرجون لله وقاراً , ولم يصدقوا برسوله صلى الله عليه وسلم , وإنما قادهم جبنهم ومرض قلوبهم إلى أن يظهروا للناس صالح أعمالهم ويتباهوا بها,كما قال تعالى عنهم: ﴿ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ النساء / **142** ؛ ولذا فلا غرو ما دام القصد مراءاة الناس أن يتخلفوا عن الصلاة إذا لم يشعر الرقيب البشري بغيابهم , ومن هنا نعرف أن أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر فبالإضافة إلى أنهما يقعان في فترة الكسل والخلود إلى الراحة , زيادة على ذلك فإنهم قد أمنوا البشر فلا يطلعون على المتخلف في الظلام , فكان تخلفهم في هاتين الصلاتين كثيراً .

هذا وقد يكون الرياء من النفاق الأكبر , وذلك فيما إذا كان أصل العمل لغير وجه الله تعالى.

وقد يكون من النفاق الأصغر وذلك فيما إذا كان أصل العمل لله ثم داخله الرياء في أثنائه , أو كان عارضا ليس أصلا في العمل [1] .

(1) راجع جامع العلوم والحكم ص (13) .

والنوع الأول لا يكاد يقع إلا من المنافقين الذين يبطنون الكفر ويظهرون الإيمان فربما أدوا بعض الشعائر الظاهرة ليراهم الجمهور , وليكون هذا شهادة على إيمانهم , وصدق نواياهم , وهم في الحقيقة لا يدينون دين الحق , ولا يحبون أهل الحق , ويسخرون من الحق وأهله .

ولا ينفقون إلا رياءً ونفاقاً , لأنهم يعدون النفقة في سبيل الله مغرماً كما في قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا ﴾ التوبة/ 98

وقوله: ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ التوبة/ 54.

فالقصد من نفقتهم الرياء ولذا فلا يتقبل الله منهم نفقاتهم .

والسورة تعرض لنا لهاث المنافقين وراء رضا الناس فهم يحلفون بالله إنهم لمنكم ويحاولون طمأنة المؤمنين من توجههم , وإرادتهم الحق , ومن ولاءاتهم للحزب المؤمن ليأمنوا على أرواحهم وأموالهم ومكاسبهم المادية والمعنوية .

فغاية مرادهم أن يرضى الناس عنهم – والناس فقط – لأنهم لا يؤمنون برب الناس: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ التوبة /96.

وهذه الآية تصور موقف المنافقين داخل المجتمع المسلم فهم شرذمة مخالفون لمعتقد المسلمين وتوجهاتهم وآمالهم وأعمالهم .

وهم مستخفون بهذه المخالفة حفاظاً على أرواحهم وحياتهم أولاً , ثم حفاظاً على مكاسبهم المادية والمعنوية بين المسلمين , فهم يخشون من سقوط الجاه وزوال المنصب أو ذهاب المال فلذا يسعون بقوة إلى إرضاء المؤمنين ومراءاتهم .

فإذا ما شعروا أن المسلمين قد تخالطهم الريبة في أفعال المنافقين فإنهم يعززون كلامهم بالأيمان الفاجرة .

والآية تبرز قضية المراءاة وطلب إرضاء الناس قبل التعبير الصريح بالإشارة في قوله تعالى: ﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ ﴾ فالحلف لكم ومن أجلكم , فهو ليس بحق , وليس للحق , ولكن لكم لرضاكم , ولزوال ما في نفوسكم عليهم من جراء تخلفهم .

ثم جاء حكم الله تعالى عليهم معللاً بالعلة , والمؤمن يأخذ حكمه من حكم الله تعالى الحكم العدل: ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ فما دام الله تعالى لم يرض عنهم فإن المؤمن لا يرضى عمن لم يرض الله تعالى عنه فهو المطلع على سرائر القلوب ودواخل النفوس .

والله تعالى لم يرض عنهم لأنهم قوم فاسقون فمتى ما عادوا عن فسقهم فإن الله يرضى عنهم , والمؤمنون يرضون بعد ذلك عنهم .

وقد جاء في الحديث عن المصطفى صلى الله عليه وسلم : " من التمس رضا الناس بسخط الله سخط الله عنه وأسخط عليه الناس"[1].

فمن لم يلتمس رضا الله وإنما طلب رضا المخلوق فإن الله تعالى يعامله بنقيض مقصده , فيسخط عليه , ويسخط عليه من طلب رضاه من البشر .

ولذا فإن مرض الرياء ذلك الداء العضال والمرض الوبال هو المرض الذي خافه الرسول صلى الله عليه وسلم على أمته حيث قال: " أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر

---

(1) رواه الترمذي , باب عاقبة من التمس رضا الناس بسخط الله رقم (2414) عن عائشة رضي الله عنها .

قالوا: يا رسول الله وما الشرك الأصغر؟ قال: الرياء"(1).

وما ذلك إلا لأن حظوظ النفس يصعب التخلص منها , ويعسر تطهير العمل من أدرانها, ويعظم الأمر ويشتد خطره إن كان ذلك يقع من أرباب العلم والإيمان , والشيطان إنما يحرص على إيقاع هؤلاء الذين تحرروا من ملذات الدنيا الظاهرة فيدخل عليهم من باب حب التعظيم والتقديم والتقدير , والإشادة بالعمل والجهد والبذل والزهد فيفسد عليهم ما قدموا من أعمال , والرسول صلى الله عليه وسلم إنما خاف ذلك على أمته لدقته وخفائه وغفلة كثير من الناس عنه . اللهم إنا نعوذ بك من الشرك صغيره وكبيره .

المطلب الثالث:

نسيانهم الله تعالى

قال تعالى: ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ التوبة / 67.

أصل النسيان: الترك , وهو " ترك الإنسان ضبط ما استودع ؛ إما لضعف قلبه , وإما عن غفلة , وإما عن قصد حتى ينحذف عن القلب ذكره " (2).

إنها لجريمة كبرى حين ينسى المرء خالقه ورازقه والمنعم عليه , وكم تدل هذه الصفة

---

(1) رواه الإمام أحمد (428/5) , والبغوي في شرح السنة (323/14) عن محمود بن لبيد .
وحسنه المنذري في الترغيب والترهيب (69/1) وابن حجر في بلوغ المرام (187) .
وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (102/1): ورجاله رجال الصحيح .

(2) المفردات (نسى) ص (803) .

على نكران الجميل ونسيان المعروف .

ونسيان المنافقين لربهم تعالى قد يراد به عدة أمور كلها داخلة في معنى الآية :

أولاً: الشرك بالله تعالى , كما قال ابن عاشور رحمه الله: " والنسيان منهم مستعار للإشراك بالله "[1].

ثانياً: ترك أمره بالكلية وهو أعم من الأول , كما قال الفخر الرازي: " تركوا أمره حتى صار بمنزلة المنسي "[2].

ثالثاً: أنهم نسوا ذكر الله تعالى [3] .

رابعاً: أنهم نسوا قدرة الله تعالى وسنته الكونية في أخذ المبطلين والمنافقين المحادين لدينه , المحاربين لرسوله صلى الله عليه وسلم .

وهذا النسيان من المنافقين بكل صوره يصح أن يكون علة وسبباً لكل الأداوء والأمراض التي ذكرت قبله من الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف وقبض الأيدي .

ولما وقع منهم هذا الأمر الشنيع عاقبهم الله تعالى بأن نسيهم في العذاب والضلال والشك والحرمان , والجزاء من جنس العمل , فلما اطلع الله تعالى على قلوبهم , وأنها محال غير صالحة لنزول الهداية جازاهم بأن نسيهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون , وهذا كقول الله تعالى في معرض تحذير المؤمنين: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ ﴾ الحشر/19.

---

(1) التحرير والتنوير (255/10) .

(2) مفاتيح الغيب (129/16) .

(3) انظر: تفسير القرآن العظيم (368/2) .

وما ظنك بعبد نسيه ربه فأنساه نفسه؟ إنه – ولا شك – في حالة يرثى لها من الضلال والتيه , فهو في جهنم دنيوية ونار حاضرة قبل نار القيامة , وما نسيهم الله تعالى إلا لأنهم هانوا عليه , ولو عزوا عنده لأكرمهم , ولو أكرمهم لذكرهم كما يذكر عباده المؤمنين [1].

ولكن هيهات هيهات هانوا على أنفسهم فأوقعوها في الشرك والنفاق , فهانوا على ربهم فتركهم في الضلال , فلا يبصرون الحق والخير ولو كانوا منه قريباً , وكان من آثار هذا النسيان أن تطبعوا بهذه الخصال الذميمة .

وصورة أخرى من نسيان الله تعالى لهم حين يُتركون في نار جهنم فلا يُلتفت إليهم ولا يجادلون , ولكن يلقون في الدرك الأسفل من النار [2] .

ونلحظ في هذه الآية استخدام الفاء التي تقتضي الترتيب مع التعقيب فلما أعرضوا عن أمره تعالى , ولم يستجيبوا لرسوله صلى الله عليه وسلم جازاهم الله بالعقوبة عاجلاً بأن نسيهم وأرداهم وأهملهم في الدنيا والآخرة .

المطلب الرابع:

عدم الرضا بحكم الرسول صلى الله عليه وسلم

قال الله تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ التوبة/58.

---

(1) انظر: الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ص (118) .

(2) انظر: تيسير الكريم الرحمن (261/3) .

روى ابن جرير – رحمه الله – بسنده عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: " بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم قسماً إذ جاءه ذو الخويصرة التميمي فقال: اعدل يا رسول الله , فقال: ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل؟ فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا رسول الله ائذن لي فأضرب عنقه . قال: دعه فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته إلى صلاتهم , وصيامه مع صيامهم , يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية . قال فنزلت: ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ... ﴾"[1].

فهؤلاء المنافقون يعيبون رسول الله صلاة الله وسلامه عليه ولا يرضون بحكمه , ويرون أنه إنما يقسم الصدقات وفق هواه وشهوته , وهو إنما يعطي من يحب , وليس المانع لهم حب الخير والدفاع عنه .. كلا فقد شرقوا بالحق , ولكنه الهلع على الدنيا والتكالب عليها , فلو أعطوا منها لسكتوا ورضوا , أما وقد منعوا فإنهم يطعنون ويعيبون . فرضاهم وسخطهم لأنفسهم لا للدين وما فيه صلاح أهله , لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قد وفَّر الغنائم للمؤلفة قلوبهم استعطافاً وترغيباً لهم في الإسلام , ولذلك جاء القرآن الكريم بعد ذلك ببيان مصارف الزكاة وأنها ﴿ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ ﴾ التوبة/60 ، فليست من محمد صلى الله عليه وسلم حسب هواه كما زعم المنافقون , بل هي فرض من الذي وسع كل شيء علماً, الذي يعلم ما يصلح للناس وما يُصلحهم في حاضرهم ومستقبلهم , في معاشهم ومعادهم .. وهو تعالى الذي يضع الأمور في مواضعها المناسبة لها، فلا يعطي من يستحق الحرمان , ولا يحرم من يستحق العطاء , فهو ﴿ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ التوبة/60 , أي: ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بظواهر الأمور وبواطنها وبمصالح

(1) تفسير الطبري (507/11) , وأصل الحديث رواه البخاري كتاب المناقب رقم (3610), ومسلم كتاب الزكاة رقم (2456) .

عباده ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يقوله ويفعله ويشرعه ويحكم به , لا إله إلا هو ولا رب سواه [1] .

والرضا بحكم الرسول صلى الله عليه وسلم شرط في الإيمان , لا يتم إيمان العبد إلا به, وهو مقتضى شهادة أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم , فلا يكون الإنسان مقراً بهذه الشهادة إلا إذا أطاع الرسول صلى الله عليه وسلم في أمره , وصدقه في خبره , ورضي بحكمه.

وهو أيضاً مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله فإن الإقرار بها مشتمل على الإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم مستلزم له , فمن شهد أن لا إله إلا الله ثم عدل إلى تحكيم غير الرسول صلى الله عليه وسلم في موارد النزاع فقد كذب.[2]

وهؤلاء لما لم يرضوا بحكم الرسول صلى الله عليه وسلم كانوا خارجين عن الإسلام لأنهم لم يقروا بشهادة التوحيد .

بل " إن المنافق يكون أشد كراهية لحكم الله ورسوله من اليهود والنصارى , وأشد عداوة لأهل الإيمان كما هو الواقع في هذه الأزمنة " [3] .

بهذا يتبين أن من ردَّ خبر الرسول صلى الله عليه وسلم أو أمره لقياس عقلي , أو لمخالفته مقدمات فلسفية , أو لأنه – زعموا – لا يوافق تقدم العصر , أو لأنه يخالف قول إمامه ومتبوعه فهو على خطر عظيم .

وفي زماننا الحاضر بلينا بأقوام من المنافقين بعد أن خلعوا ربقة الدين والإيمان خلعوا ربقة الحياء من الله تعالى ومن خلقه , فأصبحوا ينعقون برد شرع الله وينادون بأعلى

---

(1) انظر: تفسير الطبري (530/11) , تفسير القرآن العظيم (369/2) .

(2) انظر: فتح المجيد شرح كتاب التوحيد (ص 350–360) .

(3) المرجع السابق ص (358) .

صوتهم مطالبين بتنحيته عن واقع الحياة ، بل تجرؤا وأخذوا يصفونه بالرجعية والتخلف وعدم مواكبة العصر ، وقامت على ذلك أحزاب وهيئات وتبنته منظمات يسيطر عليها حفنة من المنافقين المرتزقة الذين ما هم إلا دمى يحركها أعداء الله من اليهود و النصارى .

وطائفة أخرى – ليست عن أولئك ببعيد – لا ترد شرع الله ولكنها تفهمه كما تريد وكما يحلو لها ، فغيرت وبدلت وقلبت حكم الله بما يوافق الهوى والمصلحة ، وهي تزعم مع ذلك أنها تطبق حكم الله وشرعه وهي في الحقيقة لا تطبق إلا شرع الشيطان لأنها غيرت حقائق الإسلام وبدلت قطعياته ، وأذابت قواعده وأصوله ؛ كل هذا ليوافق العصر وليواكب التقدم والرقي ولكن باسم تجديد الدين [1] .

وهؤلاء وأولئك يصدق عليهم قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (60) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا (61) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (62) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا (63) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا (64) فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (65) ﴾

(1) راجع: مفهوم تجديد الدين (ص 281) .

النساء/60–65.

عن عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما: أن رجلاً من الأنصار خاصم الزبير عند النبي صلى الله عليه وسلم في شِراج الحرَّة [1] لتي يسقون بها النخل , فقال الأنصاري: سَرِّح الماء يمر . فأبى ذلك . فاختصما عند النبي صلى الله عليه وسلم , فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للزبير: اسق يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك . فغضب الأنصاري فقال: أن كان ابن عمتك . فتلون وجه النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال: اسق يا زبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر. فقال الزبير: والله إني لأحسب هذه الآية نزلت في ذلك: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ النساء/65 [2].

قال في تيسير العزيز الحميد: " الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب, فإذا كان سبب نزولها مخاصمة في مسيل ماء قضى فيه الرسول صلى الله عليه وسلم بقضاء فلم يرضه الأنصاري فنفى عنه الإيمان بذلك فما ظنك بمن لم يرض بقضائه صلى الله عليه وسلم وأحكامه في أصول الدين وفروعه , بل إذا دعوا إلى ذلك تولوا وهم معرضون . ولم يكفهم ذلك حتى صدوا الناس عنه , ولم يكفهم ذلك حتى كفروا أو بدعوا من اتبعه صلى الله عليه وسلم وحكَّمه في أصول الدين وفروعه , ورضي بحكمه في ذلك ولم يبغ عنه حولاً" . أهـ [3].

---

(1) شِراج الحرة: مسائل الماء من الحِرَار إلى السهل , وهي جمع مفردها: شَرج . انظر: غريب الحديث لابن الجوزي (525/1) .

(2) رواه البخاري كتاب الشرب والمساقاة , باب سكر الأنهار (34/5) فتح الباري , ومسلم , كتاب الفضائل (129) .

(3) تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد ص (500) .

المطلب الخامس:

استهزاؤهم بالرسول صلى الله عليه وسلم وبالمؤمنين

من عادة الوضعاء من البشر أن يسخروا من غيرهم من الفاعلين إذا عجزوا عن بلوغ الأفق الذي وصلوا إليه , ولكنهم لا بد أن يلبسوا سخريتهم ثوباً يستر عجزهم وضعفهم وقصورهم , وأن يلصقوا ذلك كله بمن يسخرون منه ليكون الاستهزاء مقبولاً وله جانب من الوجاهة .

ولقد عايش المؤمنون وفي مقدمتهم قائدهم صلى الله عليه وسلم ألواناً من سخرية المنافقين تكشف عنه هذه السورة .

يقول تبارك وتعالى: ﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾التوبة/61 .

أخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال:اجتمع ناس من المنافقين فيهم الجلاس بن سويد, ومخشي بن حمير ووديعة بن ثابت فأرادوا أن يقعوا في النبي صلى الله عليه وسلم , فنهى بعضهم بعضا وقالوا: إنا نخاف أن يبلغ محمداً ذلك فيقع بكم , وقال بعضهم: إنما محمد أذن نحلف له فيصدقنا , فنزل: ﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ ﴾ .الآية) [1].

إنها صورة من صور سوء الأدب مع مقام الرسالة ومع النبي الأمين صلى الله عليه وسلم حين يتهمه هؤلاء المنافقون بذلك وأنه يستمع الأقوال دون تمحيص , وأنه يصدق ما

(1) الدر المنثور (227/4) .

يلقى إليه.

قال الطبري – رحمه الله – : " يقول تعالى ذكره: ومن هؤلاء المنافقين جماعة يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعيبونه: ﴿ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾ سامعة , يسمع من كل أحد ما يقول , فيقبله ويصدقه , وهو من قولهم: رجل أَذَنة , مثل: (فعلة) إذا كان يُسرع الاستماع والقبول " . أهـ [1].

قال البقاعي: " يصدق كل ما يسمع ويقبل قول كل أحد , كما سمي الجاسوس عيناً" . أهـ [2].

إنهم يجدون من النبي صلى الله عليه وسلم أدباً رفيعاً في الاستماع إلى الناس بإقبال وسماحة, ويعاملهم بظاهرهم حسب أصول شريعته, ويهش لهم ويفسح لهم من صدره , فيسمون هذا الأدب العظيم بغير اسمه , ويصفونه بغير صفته , ويقولون عن النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ هُوَ أُذُنٌ ﴾ أي: سمَّاع لكل قول , يجوز عليه الكذب والخداع والبراعة , ولا يفطن إلى غش القول وزوره , ومن حلف له صدقه , ومن دسَّ عليه قولاً قبله , يقولون هذا بعضهم لبعض تطميناً لأنفسهم أن يكشف النبي صلى الله عليه وسلم حقيقة أمرهم , أو يفطن لتناقضهم .

وهكذا المنافقون في كل زمان ومكان لا يتورعون عن الهزء والسخرية بكل شيء , ولو كان أمراً مقدساً ؛ لأنهم لا يعرفون لشيء قدسيته سوى دنياهم التي فيها يعيشون .

وهم أيضاً يسخرون من الأفق العالي والخلق النبيل , وهي سمة الوضعاء المهازيل , يسخرون من أصحاب الهمة السامية والمقصد الخيّر , وما بهم إلا أن عجزوا عن بلوغ

---

(1) تفسير الطبري (534/11) .

(2) نظم الدر في تناسب الآيات والسور (508/8) .

ما بلغوا, وأيسوا أن يصلوا إلى تلك المقامات الرفيعة .

ومع انتكاس الفطرة وانقلاب التصورات أصبح الخير شراً , والأدب بلاهة , والخلق الرفيع غباءً وغفلة .

ولعل عصرنا الحاضر لم يخل من أولئك المنافقين الذين يرفعون لواء التحرر في بلاد الإسلام , ثم يلمزون المؤمنين والعلماء الذين ينشرون الخير في الأمة ويدعونها إلى شرع الله , يسخرون منهم , ويصفونهم بأوصاف هم منها براء .

يقول الشيخ عبدالرحمن الدوسري: " وأما رميهم للمؤمنين بالسفاهة فلا عجب فيه لأن هذه سنة الكفار قديماً وحديثاً , فقوم نوح عليه السلام قالوا له: ﴿ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾هود/27.

فهم اتبعوك سفاهة دون إعمال لرأيهم وهم ليسوا من علية القوم بل قالوا: ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴾ الشعراء/111.

وفي عصر النبوة يقول المنافقون – أكفر الكفرة – في وصفهم للمؤمنين بأنهم السفهاء , وفي عصرنا هذا نجد منافقيه يسمون المؤمنين بالرجعيين والمتخلفين والمتزمتين وغير ذلك , ويسبغون على أنفسهم ألقاب المدح والمدنية والتقدمية والرقي , كما هي عادة كل منافق وضال مفسد يسمي إفساده وضلاله بأسماء حسنة ليموه بها على أطفال العقول من صغير وكبير , والله المستعان " . أهـ[1].

وبعد أن أتهم المنافقون الرسول صلى الله عليه وسلم بهذه التهمة ردَّ عليهم القرآن: ﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ ﴾ فهو صلى الله عليه وسلم أذن في الخير والحق, أذن فيما ينفع من

---

(1) النفاق آثاره ومفاهيمه ص (23) .

الوحي الذي به صلاح البشر جميعاً , وهو صلى الله عليه وسلم يصدق بوجود الله ووحدانيته , ويصدق المؤمنين الذين يعلم منهم صدق الإيمان الذي يمنعهم من الرياء والكذب[1].

وهكذا ورثته صلى الله عليه وسلم من العلماء والدعاة في كل زمان ومكان هم مصابيح الظلام وينابيع الخير والهدى للأمة , ولكن المنافقين الذين يسخرون منهم لا يدركون ذلك ولا يعرفونه .

قال الزمخشري: " فإن قلت: لم عدي فعل الإيمان بالباء إلى الله تعالى وإلى المؤمنين باللام؟ قلت: لأنه قصد التصديق بالله الذي هو نقيض الكفر به فعدي بالباء , وقصد السماع من المؤمنين , وأن يسلم لهم ما يقولونه ويصدقه لكونهم صادقين عنده فعدي باللام".أهـ [1].

قال ابن عاشور: " والتعبير بالنبي إظهار في مقام الإضمار لأن قبله ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾ التوبة/58 فكان مقتضى الظاهر أن يقال: " ومنهم الذين يؤذونك" فعدل عن الإضمار إلى الإظهار .

ووصف النبي للإيذان بشناعة قولهم , ولزيادة تنزيه النبي بالثناء عليه بوصف النبوة بحيث لا تحكى مقالتهم فيه إلا بعد تقديم ما يشير إلى تنزيهه والتعريض بجرمهم فيما قالوه ... ثم قال في ختام الآية: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ التوبة/61 وفي ذكر النبي بوصف ﴿ رَسُولَ اللَّهِ ﴾ , إيماء إلى استحقاق مؤذيه العذاب الأليم , فهو تعليق للحكم المشتق المؤذن بالعلية , وفي الموصول إيماء إلى أن علة

---

(1) انظر: تفسير الطبري (537/11) , المحرر الوجيز (53/3) , تفسير ابن كثير (110/4) .

(1) الكشاف (160/2) .

العذاب هي الإيذاء فالعلة مركبة " . أهـ [1].

قال السعدي: " فأساءوا كل الإساءة من أوجه كثيرة أعظمها: أذية نبيهم صلى الله عليه وسلم الذي جاء لهدايتهم ، وإخراجهم من الشقاء إلى السعادة ومن الهلاك إلى الهدى والنور .

ومنها : عدم اهتمامهم أيضاً بذلك ، وهو قدر زائد على مجرد الأذية.

ومنها : قدحهم في عقل النبي صلى الله عليه وسلم وإدراكه وتفريقه بين الصادق والكاذب ، وهو أكمل الخلق عقلاً ، وأتمهم إدراكاً ، وأثقبهم رأياً وبصيرة " . أهـ[2].

وإذا كان هذا واقع المنافقين مع الرسول صلى الله عليه وسلم وهو النبي المصطفى فإنهم مع سائر المؤمنين أشد سخرية وأعظم استهزاءً , يقول تعالى : ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ (**64**) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (**65**)لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾التوبة / **64-66**.

أخرج ابن جرير بسنده عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : " قال رجل في غزوة تبوك في مجلس يوماً: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء لا أرغب بطوناً ، ولا أكذب ألسنةً، ولا أجبن عند اللقاء . فقال رجل في المجلس : كذبت ولكنك منافق . لأخبرن عنك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزل القرآن . قال

---

(1) التحرير والتنوير (241/10) .

(2) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، (255/3) .

عبد الله : فأنا رأيته متعلقاً بحَقَب [1] ناقة الرسول صلى الله غليه وسلم والحجارة تنكبه وهو يقول : يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب ، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول : ﴿أَبِاللَّهِ وَآَيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾ ؟ " [2].

هذه طبيعة المنافق المراوغ المخادع الخائف فهو وجل مشفق أن يفتضح بالوحي الذي يكشف عواره وانحرافه وعقيدته في الله تعالى وفي الرسول صلى الله عليه وسلم , فأملى لهم الله تعالى: ﴿ قُلِ اسْتَهْزِئُوا﴾ واستمروا في سخريتكم ﴿ إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ ﴾ وفعلاً فضحهم الله تعالى بالفاضحة .

وستكون فضيحتهم العظمى يوم القيامة يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون .

وهذا كقوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (29) وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ محمد/29–30.

وصدق الله تعالى فإنه ما أسر عبد سريرة إلا ظهرت على صفحات وجهه وفلتات لسانه .. وكم من منافقي الزمان كانوا يستترون بوطنية أو قومية ، أو نفع عام يدسون من خلاله السم في الدسم ، ولكن يأبى الله إلا أن يفضح هؤلاء، فبعد أن كان لا يعرفهم إلا خاصة من أهل العلم والإيمان ممن اطلعوا على سجل حياتهم الحافل بالكيد والتآمر على هذا الدين وأهله، ثم أصبحوا بعد ذلك يعرفهم كل أحد عالم أو جاهل ، قريب أو بعيد .

---

(1) قال في لسان العرب (حقب) (324/1) : " الحَقَبُ بالتحريك: الحزام الذي يلي حقو البعير , وقيل: هو حبل يُشَدُّ به الرحل في بطن البعير " .

(2) تفسير الطبري ، (543/11) .

هي سنة الله تعالى في أولئك حين يشرقون بالخير والهدى ، حين يغيظهم ما يرون من انتشار ميراث الرسول صلى الله عليه وسلم فيخرجون ما بأنفسهم ويظهرون عداوتهم وصدق الله: ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾ محمد/30.

وهذه الآيات دليل على أن " من استهزأ بشيء من كتاب الله تعالى أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم الثابتة عنه أو سخر بذلك وتنقصه فإنه كافر بالله العظيم " [1].

المطلب السادس:

الفِسق

الفِسق في اللغة: الخروج , يقال: فَسَقَت الرطبة عن قشرها: إذا خرجت[2].

وفي الاصطلاح الشرعي: الخروج عن طاعة الله تعالى , إما كلياً فيكون المرء كافراً مشركاً , وإما جزئياً فيكون عاصياً , مع كونه من المسلمين [3] .

والمنافقون قد خرجوا عن طاعة الله تعالى وما أمر به ؛ فأما ذلك المنافق الذي يبطن الكفر ويحبه , ويظهر الإسلام وهو مبغض له فهو فاسق فسقاً أكبر , وأما المسلم الذي تلبس بشيء من شعب النفاق مع بقاء أصل الإيمان فهو فاسق فسقاً أصغر .

يقول تعالى عنهم: ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾

---

(1) تيسير الكريم الرحمن (260/3) .

(2) انظر: معجم مقاييس اللغة (فسق) (502/4) , لسان العرب (فسق) (308/10) .

(3) وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة وما عليه سلف الأمة , وهو الصحيح الذي دلت عليه النصوص . خلافاً للخوارج والمعتزلة .

راجع: الفتاوى شيخ الإسلام (328/7 وما بعدها) , مدارج السالكين (359/1) .

التوبة/67.

ومع أن الحديث لا يزال عنهم فإن السياق لم يأت بصيغة الإضمار بل جاء بالإظهار ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ تشهيراً بهم , وترسيخاً لحكمهم في النفوس , وتوبيخاً لهم, وليعلق الحكم بهذا الوصف للأبد .

وجاء ختام الآية بصيغة القصر ليبين أن لا فسق أعظم من فسق المنافقين؛ فكأن لم يكن فاسقٌ سواهم فهم الكاملون في الفسق , الذين يستحقون هذا الاسم بكل ما فيه من إشارات ولفتات .

وأكد الحكم بـ ﴿ إِنَّ ﴾ والضمير المنفصل ﴿ هُمُ ﴾ , كما يستفاد الحصر أيضاً من تعريف الطرفين ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ التوبة /67 .

وقد وصفهم الله تعالى بالفسق في مواضع من كتابه وفي هذه السورة بالذات , ورتب عليه جملة من الأحكام في حقهم .

فأخبر تعالى أن أعمالهم غير مقبولة , وأنهم لا يؤجرون عليها ولا يثابون , ولا تنفعهم عند الله تعالى , ولا يخفف عنهم من عذاب جهنم , وعلل هذا الحكم بأنهم فاسقون: ﴿ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ التوبة / 53 " و ﴿ إِنَّ ﴾ مفيدة لمعنى فاء التعليل " [1].

والفسق هنا بمعنى الكفر , والعمل لا يتقبل عند الله تعالى إلا إذا استجمع شرائطه , وأولها: الإيمان بالله والإخلاص له , وأولئك القوم قد فقدوا هذا الشرط فعملهم مردود غير مقبول , وهم موزورون غير مأجورين , فمهما قدموا ومهما بذلوا عن طواعية أو كره ,

---

(1) التحرير والتنوير (226/10) .

نفقة في جهاد أو عمارة بيت من بيوت الله تعالى أو صدقه على المساكين أو دعماً لمشروع من مشاريع الخير فهو داخل في قوله: ﴿ لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ ﴾ .

وتارة أخرى أخبر سبحانه أنه لا يهديهم: ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ التوبة /**80**.

فهم ليسوا موضعاً صالحاً للهداية لأنهم لم يعطوها حقها , ولم يولوها مالها من العناية والرعاية .

وأياً ما قيل في مسألة الاستغفار , في حكمها وإحكامها فالمقصود: استغفر لهم , أو دعهم من استغفارك , ولو أكثرت لهم من الاستغفار فلن يبلغوا مغفرة الله , ليس لنقص فيها ولا قصور – تعالى الله عن ذلك – ولكن لأنهم أتوا بما لا يغفره الله من الكفر بالله وبرسوله صلى الله عليه وسلم , ومن كان كذلك فهو من الفاسقين , وقد حكم الله وقضى أن مثل هؤلاء لا يوفقون ولا يعانون ولا يسددون ولا يلهمون .

ويجيء الحكم بعد ذلك مؤكداً بصورة واضحة وقاطعة:﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ التوبة / **84** , ولماذا تفعل ذلك وهم خارجون عن طاعة الله ومرضاته , ومن كان كذلك فكيف تنفعه صلاتك أو شفاعتك: ﴿ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ المدثر/ **48** .

لقد زهقت نفوسهم وهم لا يزالون محادين لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، فكما علل عدم قبوله لأعمالهم بكفرهم وفسقهم ، فكذا علل هنا النهي عن الصلاة عليهم والقيام على قبورهم وأخبر بعدم جدواها لكفرهم وفسقهم .

وفي هذه الآية تهديد لغيرهم وتحذير أن يلاقوا نفس المصير ويعاملوا هذه المعاملة من

الإهمال والإعراض .

وفي المقابل هي بشرى للمؤمن الصادق الذي لم يخالط قلبه نفاق ولا شرك بأن الله تعالى يقبل فيه شفاعة الشافعين , إذ إنه يؤخذ من مفهوم الآية الصلاة على المؤمنين والقيام على قبورهم , وما ذاك إلا لأنها تنفعهم وترفعهم عند الله تعالى , وقد قال صلى الله عليه وسلم: " ما من مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئاً إلا شفعهم الله تعالى فيه " [1].

وإذا كانت هذه حالة الإنسان الفاسق الخارج عن طاعة الله وأمره , المفارق لشرعه فإن الله تعالى أخبر أنه لا يرضى عنهم , والله تعالى إنما يرضى عمن يطيع أمره ويتبع رسوله صلى الله عليه وسلم , وهؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفة الشنيعة ليسوا كذلك:

﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾التوبة/96 ، والفاسقون هم المنافقون , والعدول عن الإتيان بالضمير " هم " إلى التعبير بصفتهم للدلالة على ذمهم , ولتعليل على عدم الرضى عنهم, فالكلام مشتمل على خبر وعلته .

فلا يجوز الرضى عن المنافق مهما تستر بأثواب براقة وأسماء موهمة فإن هذا لا يغير من الحقيقة شيئاً , وكيف يرضى المؤمن عن عدو الله تعالى ؟!

---

(1) رواه مسلم , كتاب الجنائز (18/7) (بشرح النووي) .

المطلب السابع:

عدم الانتفاع من الآيات

يقول تعالى: ﴿ وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آَمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (124) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (125) أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (126) وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ التوبة/124–127.

إن الله تعالى قد أنزل هذا الذكر ليكون حياة ونوراً , وهدى وشفاء , وسبيلاً إلى السعادة في الدنيا والنجاة في الآخرة , ولكن من أعرض عن هذا الهدى والنور فإنه لا يزيده إلا شقاء وبلاء: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآَنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ الإسراء/82.

والسورة الكريمة تعرض لنا حال المنافق عند تنزل الآيات , كما تصور حال المؤمن أيضاً, أما المنافق فإنه يتساءل تساؤل المرتاب مع إخوانه في الضلال أيكم انتفع بهذه الآية؟ أيكم صدَّق؟ أيكم آمن؟.

ويجيء الجواب من الباري تعالى رداً على هذا المنافق: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آَمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ التوبة/ 124 " فالمؤمنون زادتهم إيماناً , وأكسبتهم بشرى ؛

فحصل لهم من السورة نفعان " [1].

وأما المنافقون فإنهم لم ينتفعوا بهذه الآيات ولم يتعضوا بها ؛ فأكسبتهم مصيبتان: أنها زادتهم رجساً إلى رجسهم , وأنهم ماتوا وهم كافرون .

وصلة الموصول في الآية تبرز علة الحكم: فالصنف الأول زادتهم إيماناً لأنهم مؤمنون , والطاعة تنادي أختها .

والصنف الثاني إنما كان السبب في زيادة الرجس في قلوبهم والطبع عليها إلى ميعاد موتهم أن في قلوبهم مرضاً .

وما يحصل للمنافق عند سماع الذكر هو كما قال الله تعالى عنهم: ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ البقرة /10 .

" والزيادة في الرجس والمرض تحصل بعدة أمور:

الأول: أنه يزداد كلما طرقهم خبر عن فروع الدين وأحكامه فيشرقوا به فيتجدد لهم من الشبهات في قلوبهم ما يزيد المرض .

الثاني: أن زيادة المرض بزيادة ما ينزل الله تعالى من وحيه بفضيحتهم وتقبيح سلوكهم .

الثالث: هو سنة الله تعالى في كون المرض إذا لم يُعالج فإنه يزداد ويجلب مرضاً آخر , والمرض المعنوي – مرض القلب – أفظع في الفتك من المرض الحسي فإن الشبهات يجر بعضها بعضاً "[2].

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا ﴾التوبة/124.

أن المنافقين يتفقد بعضهم بعضاً , وأن زعماءهم ورؤوس الكفر فيهم يتفقدون من تحتهم

---

(1) التحرير والتنوير (65/11) .

(2) النفاق آثاره ومفاهيمه ص (12) .

ومن يليهم ألا يكون تسلل إلى قلوبهم شيء من الهدى والنور بعد تجدد الآيات , إنهم يتابعون غرس النفاق ألا يأتي عليه الإيمان , وهذه وإن كانت قصة ماضية فهي سنة باقية في المنافقين الذين يجرون الناس إلى النفاق تحت أثواب شتى , ثم لا يهملون من أردوه بل يتابعونه ويزيدونه شبهات وشبهات , و يسعون أن لا تتغير قناعاته الكافرة من جراء السماع الإيماني . فهم يواصلون الغسيل الفكري باستمرار ليضمنوا استدامة الضلال .

ثم جاء التوبيخ في الآية الأخرى لهؤلاء القوم كيف أنهم يتعرضون لأنواع الفتن , فتن في النفس , وفتن في الأولاد , وفتن في الأموال, وفتن في المجتمعات, وفتن في الدين , ومع ذلك لا يكون هذا واعظاً لهم ولا مذكراً , ولا فاتحاً لنوافذ القلوب ليدخل إليها الهدى والنور .

والذي يتحصل من النصوص أن المنافقين لا يتعظون مطلقاً فهم:

أولاً: لا ينتفعون من الآيات الشرعية التي نزل بها الروح الأمين على قلب محمد صلى الله عليه وسلم , بل يسخرون منها ويكذبون بها ويعرضون عنها , وتكون تلك الآيات زيادة في مرض قلوبهم , وزيادة في ضلالهم .

ثانياً: لا ينتفعون من الآيات الكونية التي تجري عليهم , وعلى إخوانهم , أو تجري بمرأى منهم ومسمع .

وهذا كما قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ﴾ التوبة/126 قال: " يبتلون " .

وقال مجاهد: " يبتلون بالسنة والجوع " .

وقال الحسن: " يبتلون بالعدو في كل عام مرة أو مرتين " (1).

إن المؤمن بضد ذلك فهو يرى أن ما أصابه إنما هو بعمله , ولذا فهو يراجع ربه , وقد ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم إذا سمع صوت الريح عُرف ذلك في وجهه (2) , وإذا قحط المسلمون هرعوا للصلاة والاستغفار والتوبة , وكذا يفعلون عند الكسوف ونزول الآيات.

أما أولئك القوم فإن من سجاياهم عدم الاتعاظ والانتفاع , وما هذا إلا لمرض في قلوبهم وفساد في اعتقادهم وقد قال تعالى: ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى ﴾ الأعلى /10، وقال:﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾الذاريات/55، وهم ليسوا مؤمنين ولا يخشون الله تعالى ؛ ولذا فهم يحيلون كل ما يحدث في الأنفس والآفاق إلى أسباب كونية مجردة , ويفقدون الوعي الإيماني الذي يرفع مستوى تفكيرهم ليتدبروا في أسباب أخرى وراء الأسباب المادية .

ومع تكرر طروق تلك الآيات على المنافقين حتى إنها قد تأتيهم في العام الواحد أكثر من مرة , فإن هذا لم يوجد في قلوبهم التوبة الصادقة الصالحة الناصحة التي يراجعون فيها أمر الله , بل ولا مقدمات التوبة من التذكر والانتباه .

ثم تشرح الآية الأخيرة تسللهم وخروجهم من المؤمنين عند سماع الآيات فيقول تعالى: ﴿ وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ التوبة / 127.

---

(1) انظر: تفسير الطبري (580/14) , تفسير ابن كثير (176/4) , الدر المنثور (523/4) .

(2) رواه البخاري كتاب الاستسقاء (604/2) فتح الباري , ومسلم كتاب الاستسقاء (196/6)

(بشرح النووي).

وهنا يتبين جملة من صفاتهم يتعرف المؤمنون عليهم من خلالها:

الرياء: ويؤخذ من قوله تعالى: ﴿ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ﴾ .

الجبن: ويؤخذ أيضاً من قوله سبحانه: ﴿ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ﴾.

عدم الفقه: ويؤخذ من قوله تعالى: ﴿ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ .

وأخيراً عدم انتفاعهم بما ينزل من الآيات البينات والهدايات الواضحات.

ولعلنا نختم الحديث عنهم في هذا الباب بذكر أبرز العوامل التي تحول دون التذكر والانتفاع من الآيات , سواء كانت شرعية أو كونية:

أولاً: مرض القلب بكفر أو شك أو معصية ؛ شهوة كانت أو شبهة , فإن هذا حائل عظيم دون الانتفاع بذكر الله تعالى: ﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴾ المائدة /52 .

ثانياً: حب الدنيا وإيثار الزائل العاجل , وما صدَّ صناديد قريش وكفارها عن الإيمان بدعوة الحق إلا خوفهم من زوال جاههم وملكهم , ومثلهم قيصر الروم فما صدَّه عن الإيمان إلا إيثاره ملكه بعد أن عرف الحق: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (11) بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾الفتح/11–12 إلى أن قال سبحانه: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ الفتح /15

ثالثاً: البيئة السيئة التي تحجب عن الإنسان رسل الخير ونذر الهداية , وقد قال صلى الله عليه وسلم: "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه"[1].

المبحث الثاني

صفات المنافين في العبادة

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: الفرح بالمعصية.

الطلب الثاني: كراهية الطاعة.

المطلب الثالث: الكسل في الصلاة.

المطلب الرابع: الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف.

المطلب الأول:

الفرح بالمعصية

إن المؤمن قد يقع في شيء من الزلل , وقد تغلبه نفسه الأمارة بالسوء فيسقط في بعض ما نهى الله تعالى عنه , ولكنه مع ذلك يرتفع مرة أخرى بإيمانه, ويتذكر أمر ربه ويراجع نفسه , وهذه سجية من سجايا البشر فلم يسلم من الخطيئة حتى آدم عليه السلام , قال صلى الله عليه وسلم: "كل بني آدم خطاء, وخير الخطائين التوابون "[2]

---

(1) رواه البخاري كتاب الجنائز باب ما قيل في أولاد المشركين رقم (1385) , ومسلم كتاب القدر باب معنى كل مولود يولد على الفطرة رقم (6755) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(2) رواه الترمذي كتاب الزهد باب في استعظام المؤمن ذنوبه رقم (2499) وابن ماجة , كتاب

ومهما وقع المسلم في شيء من الخطايا فإنه يحس بوطأة الذنب وتأنيب الضمير .
وهذه حال المؤمن الموحد الذي يخشى الله ويتقيه ويعلم أنه في يوم ملاقيه, عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: " إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه في أصل جبل يخاف أن يقع عليه , وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه قال به هكذا فطار " [(1)] .
أما المنافق فمختلف جداً , فليست المسألة وقوعاً في المعاصي كلا .. فمن المعصوم ؟ إن المنافق مع ارتكابه للذنب يفرح به ويأنس , ويرى أنه حصَّل نفعاً, وأدرك مكسباً , وهذا الشعور النفسي الذي قد يظهر على السلوك والجوارح هو دلالة أكيدة على ضعف الإيمان أو زواله من القلب , وقلة توقير الرب تعالى في نفس العبد .
إذ كيف ينعم عبد بمعصية وهو يعلم أن الله مطلع عليه وقادر على الانتقام منه .
ومن هنا كان الفرح بالمعصية والمجاهرة بها معصية أخرى تضاف إلى المعصية الأولى , ولا يزال المرء في سعة ما لم يبلغ هذا الحد الذي يعني انخلاع الحياء من الله تعالى من القلب , وزوال هيبته تعالى من النفس , وضعف الإيمان بأسمائه وصفاته , وتعني أيضاً تغلغل هذه المعصية واستيلاءها على مساحة كبيرة من القلب , وقد قال صلى الله عليه وسلم: " إذا سرتك حسنتك , وساءتك سيئتك فأنت مؤمن " [(2)].
وأما من لم تسؤه سيئته فليراجع إيمانه , فإن الله ذكر المنافقين فقال عنهم: ﴿ فَرِحَ

الزهد , باب ذكر التوبة رقم (4251) , والحاكم , كتاب التوبة , (244/4) عن أنس رضي الله عنه , وحسنه الألباني , انظر: مشكاة المصابيح (724/2) .
(1) رواه الترمذي (الموضع السابق) رقم (2497) .
(2) رواه أحمد (252/5) , وابن حبان (200/1) , والحاكم (14/1) وصححه , ووافقه الذهبي , وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم (550) .

الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ التوبة /81 .

أما المؤمنون فإن حالتهم بعد تخلفهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم غير ذلك , فقد ندموا ووبخوا أنفسهم ، وأعلنوا توبتهم ، فهذا أبو خيثمة رضي الله عنه يدخل على زوجتيه بعد خروج النبي صلى الله عليه وسلم وهما في العريش, وقد رشاه بالماء وأحسنا الظل فيتذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فيندم ويقسم أن لا يدخل حتى يلحق برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكذلك فعل [1].

وهذا كعب بن مالك رضي الله عنه يجيء رسول الله صلى الله عليه وسلم فيصدق معه ويعلن توبته ، ويؤجله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وينهى المسلمين عن كلامه تأديباً له، فيصبر ويحتسب حتى يأتيه الفرج من الله تعالى وهو أشد ما يكون ندماً على تخلفه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخروج لتبوك [2].

أما المنافقون فإنهم يفرحون حين يتخلفون بل يتمنون ذلك ، ولما كان أمرهم بهذا السوء جاء التعبير بأنهم (مخلفون) بصيغة اسم المفعول توبيخاً لهم وإزراءً عليهم بأن الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنون خلّفوهم [1] أو أن الذي خلّفهم كسلهم والنفاق

---

(1) ذكره ابن اسحاق في السيرة . انظر: سيرة ابن هشام (520/2) , وأصله في الصحيحين من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه في قصة تخلفه عن غزوة تبوك .
انظر: زاد المعاد (3/ 530) , الحاشية القادمة .

(2) رواه البخاري كتاب المغازي باب حديث كعب بن مالك رقم (4418) , ومسلم , كتاب التوبة , باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه رقم (7016) .

(1) انظر: التحرير والتنوير (280/10) .

والشيطان [1].

ثم قال تعالى: ﴿ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ فهم قعدوا خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم وأرادوا مخالفته [2].

فنبه تعالى أنه خلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس خلاف غيره من البشر ؛ لينعى عليهم عظم مصيبتهم , وفداحة جرمهم , إذ كيف يفرحون بهذه المصيبة وهذا التخلف , وإذا كان هذا فرحهم بالمعصية وهم يرون رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم فكيف لو كان مع سواه ؟

ولما كان أمرهم قد استفحل , ونفاقهم قد استولى على قلوبهم وقد غدت المعصية تفرحهم والطاعة تحزنهم جاء الوعيد العظيم من الله تعالى بعد ذلك: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ

---

(1) انظر: الكشاف (165/2) .

(2) اختلف المفسرون في معنى قوله: ﴿ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ على قولين:

الأول: أنهم قعدوا خَلف رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعد خروجه , ويؤيد هذا المعنى قراءة ابن عباس رضي الله عنهما وأبي حيوة وعمرو بن ميمون (خَلف رسول الله) .

وهو قول أبي عبيدة والزمخشري وغيرهم .

الثاني: أن ﴿ خِلَافَ ﴾ بمعنى المخالفة , أي: قعدوا مخالفين لرسول الله .

وهو قول الطبري والأخفش والزجاج وغيرهم .

ولم يستبعد الطبريُ الجمع بين القولين فقال عن القول الأول: " وذلك قريبٌ لمعنى ما قلنا ؛ لأنهم قعدوا بعده على الخلاف له " . أهـ

انظر: تفسير الطبري (602/11) , شواذ القرآن لابن خالويه (ص54) , مجاز القرآن (264/1) , معاني القرآن للأخفش (558/2) , معاني القرآن للزجاج (463/2) , الكشاف (75/3) , التحرير والتنوير (280/10) .

حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (81) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ التوبة /81–82.

فهذه عاقبة فرحهم بمعصية ربهم في الآخرة , وهذا ما سيجدونه حين يلاقون الله تعالى ,ولهم أيضاً عقوبات في هذه الدنيا رتبها الله تعالى على نفاقهم وفرحهم بمعصية الله تعالى حيث جاء الاستغناء عن كل طاقة عند المنافق , وكل جهد يمكن أن يبذله فقد بان النفاق وظهر الكفر فلا يمكن أن يتقبل الله تعالى منه عمل: ﴿ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ﴾ التوبة /83 [1]

ثم جاء السياق مبيناً العلة لذلك , وهي:

﴿ إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴾ التوبة /83

فليس مجرد القعود هو السبب , ولكن الفرح به والسرور والرضى الذي لا يقبل معه جهاد ولا عمل .

وعقوبة أخرى ينالونها هي أشد وأنكى ؛ حيث ينهى الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم عن الصلاة عليهم والقيام على قبورهم للدعاء والاستغفار لهم فيقول تعالى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ﴾ التوبة/84.

المطلب الثاني:

كراهية الطاعة

إن الإسلام عقيدة تستقر في القلب , قوامها شهادة أن لا إله إلا الله , محمداً رسول

(1) قال البيضاوي (415/1) : " إخبار في معنى النهي للمبالغة " . أهـ .

الله, ولا يمكن لهذه العقيدة أن تكون صحيحة صادقة مقبولة إلا إذا صدقها العمل , و القرآن يقرن الإيمان بالعمل الصالح الذي هو جزء منه بمثابة الشاهد واللازم والثمرة لهذا الإيمان , فيقول تعالى: ﴿ وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ العصر /1-3.

ويقول تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾مريم/96 ويقول سبحانه: ﴿ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ الكهف /88.

والمؤمن الذي يقوم بهذا العمل الذي هو عبادة ربه الكريم الرحيم المتصف بصفات الكمال والجلال يشعر بسعادة وراحة لأنه يؤديها لمن يستحقها , وهي جزء من الشكر لله تعالى على نعمته , فهو يؤديها بإقبال وإخلاص , ويقين بأن الله تعالى مطلع عليه .

ومع قيام المؤمن بهذه العبادات فهو يحبها ويأنس بها لأنها تحقق له السعادة والراحة والطمأنينة في هذه الدنيا: ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ الرعد / 28 ولأنها جزء من توحيد ربه وهو يحب ربه كما قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ البقرة /165 فالمؤمنون يحبون الله , ويحبون ما يحبه , ويحبون كل عمل يقربهم إلى محبة الله تعالى .

ولا شك أن تلك العبادات أعظم طريق موصل إلى محبته سبحانه , وقد قال تعالى كما في الحديث القدسي الذي رواه الرسول صلى الله عليه وسلم عن ربه تعالى: " وما تقرب عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه , ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ... الحديث " [1] .

---

(1) رواه البخاري كتاب الرقاق , باب التواضع , رقم (6502) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

وهذا حال المؤمن الذي وقر الإيمان في قلبه وذاق حلاوته فأثمر ثماراً على جوارحه وسلوكه , وأما المنافق – وهو بضد حال المؤمن – فلم يجد طعم الإيمان, ولم يحب الله تعالى حق المحبة ولذا فهو لا يحب العمل المقرب لله تعالى , ولا يأنس به ولا يجد فيه سعادة ولا طمأنينة , بل يجد فيه ضيقاً وحرجاً وهماً وغماً , ذلك أن العمل ثمرة المعتقد الراسخ الصحيح , والمنافق فاسد الاعتقاد ,كافر القلب , مظلم الضمير .

والسورة تعرض لنا جملة من مشاهد المنافقين وكراهيتهم للعمل الصالح وزهدهم فيه ورغبتهم عنه .

فهم أولاً كارهون للدين كله جملة وتفصيلاً .. كارهون للنور الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم مستاؤون منه .

يقول تعالى: ﴿ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ التوبة /48 .

فلقد كانوا يكيدون ويمكرون ويدبرون الحيل للفتك بالمسلمين حتى عم الإسلامُ الأرضَ, وانتصر على أعدائه , ويئس المنافقون من المسلمين فشرقوا بالحق , وظهر وهم مبغضون له كارهون لأهله , ولكن كراهيتهم أو رضاهم لا يغير من الأمر شيئاً .

هذا موقفهم تجاه الإسلام كله وهو موقفهم تجاه شعائره وشرائعه , فلا يؤدونها , وإن أدوها فعلى مضض , وعلى سبيل التخلص منها , قال الله تعالى عنهم: ﴿ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ ﴾ التوبة /53 .

وهذا أسلوب حاصر لنفسية المنافق عند النفقة والجهاد بالمال , والمقصد منه عدم قبول النفقة بإطلاق لعدم الإيمان , وإلا فإن المنافقين لا ينفقون إلا وهم كارهون وهذا ما بينه تعالى بعد ذلك حين قال: ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ

وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ التوبة /54 ،
فهذه طبيعتهم لا ينفقون إلا وهم كارهون , كارهون للإنفاق , وكارهون لمن يدفعون إليه , وكارهون للمجال الذي يسهمون فيه .

والسبب الرئيس في ذلك أنهم ليسوا مؤمنين , ففساد الاعتقاد هو الذي أثمر الثمار الخبيثة .

وكراهيتهم للإنفاق في سبيل الله ليس أمراً مستغرباً إذا ما تذكرنا أنهم أقوام طبعوا على البخل والشح , وأصبح صفة راسخة ثابتة فيهم لا تتغير ولا تتحول فجاء النفاق بعد ذلك فزادها ثباتاً ورسوخاً .

هذا فيما يتعلق بكراهيتهم للمشاركة في سبيل الله بالمال , وأما المشاركة بالنفس فإنهم أجبن وأخوف من ذلك , وقد قال الله تعالى عنهم: ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ... الآية. التوبة /81

وقد سلك المنافقون للتخلص من هذه العبادات وسائل شتى وأساليب متنوعة , كل هذا للقعود عن هذه الأعمال التي كرهوها , ورأوها ثقلاً دون ثمرة أو نتيجة , فمن وسائلهم: الأعذار الكاذبة التي يختلقونها للتخلف عن الجهاد .

ويضيفون إلى ذلك الأيمان الفاجرة , والحلف الكاذب إذا استلزم الأمر ذلك.

وهم يعتذرون بأن هذا وسعهم وطاقتهم – والله لا يكلف نفساً إلا وسعها – ولو وجدوا غير ذلك لخرجوا: ﴿ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ ﴾ التوبة /42 .

بل ويلبسون أعذارهم لبوساً شرعياً , فمن ذلك قول بعضهم حين دعاه الرسول صلى الله عليه وسلم للغزو والجهاد في سبيل الله: " إني رجل أحب النساء , إني أخشي إن رأيت

نساء بني الأصفر أن أفتن " . [1] **﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ﴾التوبة/49.**

وإذا رأوا أن الأمر قد ضاق عليهم فهم يقدمون بعض المال دون النفس فهذا أهون عندهم [2].

وقد يفلسفون أخطاءهم ويبررونها بمبررات يحسبونها وجيهة , كما قال تعالى حكاية عنهم: ﴿ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ ﴾ التوبة/81 ، فالمانع من الخروج أنهم يرون أن الوقت غير ملائم والوضع غير مناسب فلذلك تخلفوا . وليس الأمر كذلك وإنما بهم الكسل , وحب القعود وكراهية الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

كل هذه المواقف وغيرها كثير تقصها علينا السورة لتبين لنا مدى كراهية المنافق لكل أعمال البر والخير .

---

(1) رواه الطبري (287/14) والطبراني في الكبير (122/12) عن ابن عباس رضي الله عنهما والقائل هو: الجد بن قيس .

وانظر: مجمع الزوائد (30/7) , الدر المنثور (213/4) .

(2) قال الجد بن قيس: " إني أخاف الفتنة على نفسي , فأعينك بالمال " .

انظر: الحاشية السابقة .

وقد قيل: إن الجد بن قيس تاب وحسنت توبته . انظر: أسد الغابة (327/1) الإصابة (238/1) .

المطلب الثالث:

الكسل في الصلاة

الصلاة في الإسلام لها شأن عظيم , فهي الركن الثاني من أركان الإسلام, وهي الصلة بين العبد وربه , وقد كانت شعائر الإسلام تفرض على الأرض إلا الصلاة فقد فرضت في السماء .

ومن ترك الصلاة جاحداً لوجوبها فقد أجمع العلماء على كفره وخروجه من الإسلام .

وكذلك من تركها تهاوناً وكسلاً على الراجح من أقوال أهل العلم (1) .

عن بريدة رضي الله عنه قال: قال صلى الله عليه وسلم: " العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر " (2) .

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " بين الرجل والشرك أو الكفر ترك الصلاة " (3).

---

(1) راجع مجموع الفتاوى (40/22 وما بعدها) نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار (369/1-373) وكتاب الصلاة وحكم تاركها ص (16وما بعدها) .

(2) رواه النسائي , كتاب الصلاة , باب الحكم في تارك الصلاة رقم (464) وابن ماجه , كتاب إقامة الصلاة , باب ما جاء فيمن ترك الصلاة رقم (1079) . والحاكم , كتاب الإيمان (7/1) وقال: صحيح الإسناد لا تعرف له علة بوجه من الوجوه , ووافقه الذهبي , وصححه الألباني.

انظر: صحيح الترغيب والترهيب (226/1) .

(3) رواه مسلم (70/2-71) (بشرح النووي) .

وقد كان للسلف رحمهم الله تعالى مع الصلاة أحوال وأي أحوال , فقد كانت قرة العين , والواحة في الهجير , بها يناجون ربهم , ويتقربون إليه , ويسألونه حاجاتهم , يقول إمامهم صلى الله عليه وسلم: " وجعلت قرة عيني في الصلاة " (1).

ولقد كانوا يأتونها على كل حال من قوة وضعف , وشدة ورخاء , وسراء وضراء , يقول ابن مسعود رضي الله عنه: " ولقد كان يؤتى بالرجل يهادى بين الرجلين حتى يقام في الصف "(2).

كل هذا إدراكا منهم لأهمية الصلاة , وعلو شأنها , وسمو مرتبتها .

والمنافقون – بضد ذلك– يصورون المشهد الآخر ؛ التكاسل عن الصلاة والتفريط فيها, ولقد قص الله علينا نبأهم فقال: ﴿ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى﴾ التوبة / 54.

الصلاة التي هي عمود الدين , وعنوان العبودية الخالصة ومظهرها , هذه العبادة التي جعلها الله تعالى على المؤمنين كتاباً موقوتاً , يقف منها المنافقون موقف الكسل والتثاقل والتهاون , ويغفلون عن كل ما فيها من خير وبر , فلا يدركونه ولا يعرفونه , وإن قاموا إلى أدائها فلكي يخفوا عن المسلمين نفاقهم , وليسبغوا على أنفسهم ثياب المسلمين في مظهر هذه العبادة الشريفة .

ولذا فإن قيامهم ليس قيام المؤمن المتطلع إلى مناجاة ربه , يحركه الشوق ويدفعه النشاط, ولكنه قيام المتصنع المتظاهر بما لا يريد عمله . ﴿ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ

---

(1) رواه الإمام أحمد رقم (2293) ,و النسائي في الكبرى (8887) , وأبويعلى في المسند (3482) , والضياء في المختارة (1608وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (3119) .

(2) رواه مسلم كتاب الإمامة (156/5) بشرح النووي .

قَامُوا كُسَالَى ﴾ النساء/ 142، على كره واستثقال , وهم لا يريدون بها وجه الله تعالى , ولا يقصدون بها مناجاته, والتعبد له ولكنهم: ﴿ يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾ فهي صلاة لا تحمل غير صورتها الشكلية الفارغة من الصدق والخضوع والحياة, ولا تحفل من حقائق العبودية وذكر الله والخشوع والخضوع إلا بالقليل الضئيل: ﴿ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ النساء / 142.

وإذا كانت الصلاة كلها بهذا الثقل على المنافقين , فإن صلاة العشاء وصلاة الفجر أشد ثقلاً , لأنهما في وقت الراحة والسكون , فيهما يُبلى الصادق من الكاذب , وهو وقت يضعف فيه الداعي لدى المنافقين ألا وهو مراءاة الناس لحلول الظلام , ولذا قال صلى الله عليه وسلم: " أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر " [1][2].

وصور تفريط المنافق في أمر الصلاة تتجلى فيما يلي:

أولاً: التخلف عن أدائها في جماعة المسلمين ,كما قال ابن مسعود رضي الله عنه: " لقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق قد علم نفاقه " [3].

ثانياً: إتيانها مع التكاسل والتهاون , كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى ﴾ التوبة /54.

ثالثاً: الرياء فيها والتزين للناس بها , كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ يُرَاءُونَ النَّاسَ ﴾ النساء/142.

---

(1) رواه البخاري كتاب الآذان (165/2) فتح الباري , ومسلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب فضل صلاة الجماعة (154/5) (بشرح النووي) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) راجع: ظاهرة النفاق في إطار الموازين الإسلامية ص (104) .

(3) سبق تخريجه ص (48) .

رابعاً: عدم استحضار الوقوف بين يدي الله تعالى والخشوع فيها , وذكره كما ينبغي: ﴿ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ النساء/142 .

خامساً: تأخيرها عن وقتها , قال صلى الله عليه وسلم: " تلك صلاة المنافق يجلس أحدهم يتحدث حتى إذا اصفرت الشمس وكانت بين قرني الشيطان قام فينقرها أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً "[1].

ولما كان أمر الصلاة بالغ الخطورة , وكان المنافقون فيها بهذه الحالة , أصبحت المحافظة عليها دليلاً على البراءة من النفاق كما قال صلى الله عليه وسلم: " من صلى لله أربعين يوماً في جماعة يدرك تكبيرة الإحرام كتب له براءتان , براءة من النار وبراءة من النفاق"[2].

وإن مما يندى له الجبين ما وقع فيه كثير من المسلمين – هداهم الله– في هذه الأزمان من تفريط في أداء الصلاة وتضييع لحقها , وتأخير لوقتها , وتهاون في أدائها جماعة مع المسلمين , ولا يعجز المرء أن يلحظ التفاوت العظيم بين أعداد المصلين في صلاة الفجر وغيرها من الصلوات , مما يدل على كثرة التخلف في هذه الصلاة , ناهيك عن الذين لا يشهدون الجماعة بالكلية في سائر الصلوات , وهذا نتيجة أسباب لعل أهمها:

أولاً: الإغراق في المعاصي التي تصد عن ذكر الله وعن الصلاة .

ثانياً: التشاغل في أمر الدنيا وطلب المعاش , ونسيان ما خلق المرء من أجله .

ثالثاً: التربية السيئة والنشأة – الأولى – التي لم تعتن بأمر الصلاة .

---

(1) رواه مسلم كتاب المساجد (123/5) (بشرح النووي) .

(2) رواه الترمذي كتاب الصلاة باب ما جاء في فضل التكبيرة الأولى , رقم (241) عن أنس رضي الله عنه وحسنه الألباني . انظر: صحيح الجامع الصغير , رقم (6241).

رابعاً: السهر – سيما إذا كان على ما حرم الله – والذي قد يؤدي إلى فوات صلاة الفجر.

خامساً: الجهل بأهمية الصلاة , وخطورة تركها وأنه قد يؤدي إلى الكفر.

سادساً: عدم قيام أئمة المساجد خاصة والمصلين عامة بواجبهم في مناصحة المتخلفين ووعظهم وزجرهم عما يفعلون .

فعلى المسلمين أن يتدارسوا هذه الأسباب وغيرها , وأن ينظروا في علاجها حتى يتطهر المجتمع من هذه الآفة العظيمة .

المطلب الرابع:

الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ التوبة /67 .

المنكر: هو كل ما أنكره الشرع والعقل السليم كالشرك وسائر المعاصي

المعروف: كل ما عرفه الشرع وأمر به كالتوحيد وطاعة الله [1].

إن المرء السوي الذي لم تنحرف فطرته , ولم تتلوث بأوضار الجاهلية يحب المعروف ويكره المنكر لأن المعروف مما تعرفه النفوس السليمة والفطر المستقيمة, والمنكر مما تنكره وتنفر منه , ولأن تلك النفوس تعلم أن سعادتها مرهونة بفعل المعروف وترك المنكر .

وقد كان من صفات المؤمنين أنهم يتعاونون على الخير والمعروف ويتناهون عن الشر والمنكر , وهذا في القرآن الكريم كثير , قال تعالى: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾التوبة / 71، وقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ المائدة / 2

أما المنافقون فهم بخلاف ذلك , آمرون بكل منكر راغبون فيه , ناهون عن كل معروف ومزهدون فيه , بل إذا أمكنهم الأمر محاربون له , معاقبون لأهله .

---

(1) راجع: المفردات في غريب القرآن ص (331 وَ 505) .

وقد كانت السورة تعرض لنا صورة من تلك الصور في قوله تعالى: ﴿ لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة ﴾ التوبة /47 وهذا كقوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾ الأحزاب/13 .فهم لا يكتفون بكونهم متخاذلين جبناء بل يأمرون غيرهم بهذه الخصلة الذميمة النكراء .

وأعظم من ذلك أمرهم بالكفر بالله تعالى وبرسوله صلى الله عليه وسلم , وتواصيهم بذلك وتعاونهم عليه: ﴿ وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ البقرة /14.وهذا قطعاً لا يصدر إلا من نفوس قد تمرست في الباطل وتمرغت في أوحاله , فانتكست فطرها فأصبحت ترى المعروف منكراً والمنكر معروفاً .

ومن تلك المظاهر الخطيرة أمر تلك الحفنة من المنافقين الذين يقومون على قبور من يزعمونهم من الصالحين , فيدعون الناس إلى زيارتها والتبرك بها وتقديم النذور لها والطواف بها والتمسح بأركانها ودعائها من دون الله وغير ذلك من مظاهر الشرك والانسلاخ من الدين .

وهؤلاء المنافقون , الماديون النفعيون الذين يحسنون أعظم المنكر ويدعون إليه , يجدون من يسندهم وللأسف الشديد من علماء السوء بفتاوى وآراء تحسن الشرك وتدعو إليه وتلبسه ثوب التوحيد والعبادة .هذه المظاهر المنحرفة التي هبطت بمستوى تفكير جماعة من المسلمين , وأسلمتهم أسارى للخرافات والخزعبلات , وأقاصيص المشعوذين والوثنيين الذين يروون لهم عن كرامات الشيخ فلان ومكاشفات الولي فلان .

المبحث الثالث

صفات المنافقين في الخُلق والسلوك

وفيه سبعة مطالب:

المطلب الأول: الكذب.

المطلب الثاني: الجبن.

المطلب الثالث: قبض الأيدي.

المطلب الرابع: الغدر.

المطلب الخامس: عدمَ الفقه.

المطلب السادس: الفرح بمصائب المؤمنين.

المطلب السابع: إخلاف الوعد.

المطلب الأول:

الكذب

النفاق هو الكذب في ادعاء الإيمان مع إبطان الكفر , وإظهار الخير مع إضمار الشر , وعليه فإن أجلى صفات المنافقين وأظهرها " الكذب " , وقد عدَّ الرسول صلى الله عليه وسلم صفات المنافقين فذكر أولها الكذب فقال: " آية المنافق ثلاث إذا حدَّث كذب, وإذا وعد أخلف , وإذا ائتمن خان " [1].

وإذا قلبت النظر فيما ذكره الله عن المنافقين في الكتاب العزيز فإنك تجد وصفهم بالكذب , والإخبار عنهم به يتكرر في كل موضع .

وحين ذكرهم في أول سورة من القرآن , وصفهم بالكذب ورتب عليه العذاب الأليم فقال سبحانه: ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ البقرة/10.

وكذب هؤلاء المنافقين يتعدى المنطق والخطاب إلى الكذب في الفعل والتعامل بل والكذب في الاعتقاد والإيمان .

وفي سورة " التوبة " كثر الحديث عن كذب المنافقين ؛ الكذب في التعامل مع الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم حيث يقول تعالى: ﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

---

(1) رواه البخاري كتاب الإيمان (89/1) (فتح الباري) , مسلم كتاب الإيمان (46/2) (شرح النووي) .

التوبة/**90** ، ويقول سبحانه: ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ التوبة/**77** .

كما قص علينا تعالى في السورة كذبهم على عباد الله في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (**42**) عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ التوبة/**42–43**.

وقوله تعالى: ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ التوبة/**62**.

وقوله تعالى: ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ التوبة/**74**.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (**93**) يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (**94**) سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (**95**) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ التوبة/ **96/93**.

وهؤلاء المنافقون الذين تطبعوا بهذه الصفة حتى أضحت لازمة لهم إن رأوا أن الكذب

المجرد غير مجدٍ في تحقيق مآربهم ورفع الريبة عنهم فإنهم لا يتورعون عن الأيمان الفاجرة والحلف الآثم كما قال تعالى: ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ التوبة/62 وقال تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (95) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾التوبة/95–96.

وقال سبحانه: ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ التوبة/74.

وقال سبحانه: ﴿ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ التوبة/107 ،

ونلحظ التعبير عن حلفهم بالمضارع الذي يدل على التجدد والحدوث , فهذا الحلف الكاذب متكرر منهم , فهم لا يتورعون عنه ولا يستنكفون ولا يتوبون .

بل وفوق ذلك ربما غلظوا هذه الأيمان دفعاً للريبة عنهم كما قال سبحانه: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ ﴾ النور/53.

وسورة الفاضحة – التوبة – تعرض كذب هؤلاء المنافقين في مجالات أربعة:

الأول: ادعاء الإيمان مع إبطان الكفر ,كما قال سبحانه: ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ ﴾ التوبة/74.

ولما كانت دعواهم هذه محل شك وارتياب من المؤمنين أكدوها بالحلف , وجاء النص في الآية على أنه حلف بالله , فهم يحلفون بأعظم محلوف به جل وعلا , مع ما في

ذلك من النداء عليهم بالجهل والظلم والتمادي في الغي إذا استسهلوا الحلف بالله والقسم به جل وعلا وهم كاذبون آثمون .

ولما كان خبرهم مؤكداً باليمين جاء الجواب مؤكداً بالقسم أيضاً ؛ ليكون تكذيب قولهم مساوياً لقولهم في التأكيد (1).

وهذا الإسلام الذي ذُكر في الآية سواء كان إسلاماً حقيقياً كفروا بعده وارتدوا, أو كان إسلاماً في الظاهر خوف القتل فالنتيجة أنهم الآن كفار مع زعمهم خلاف ذلك .

الثاني: ادعاء حبهم للمؤمنين وموالاتهم لهم وأنهم منهم وما هم منهم, كما قال سبحانه: ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴾ التوبة/56.

ونلحظ أن ردَّ دعواهم في هذه الآية جاء عارياً عن المؤكدات مع أنهم صدَّروا دعواهم بأنواع المؤكدات , والذي يظهر – والله أعلم – أن ذلك لأن شأنهم وحالهم

وجه العموم – لا يكاد يخفى على ذي بصيرة مؤمن كما قال سبحانه: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾ محمد/30 , ف ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ التوبة/71 , أما المنافقون والمنافقات فقد أخبرت السورة أنهم ليسوا من المؤمنين لا عقيدة ولا ولاءً ولا عملاً ولا خلقاً: ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ﴾ التوبة/67.

الثالث: اختلاق المعاذير حين يُدعون إلى الجهاد والنفقة فيقعدون ويبخلون , وسورة براءة نزلت بنبذ العهود والأمر بالنفير العام والحث على الجهاد: ﴿ بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (1) فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا

(1) انظر: التحرير والتنوير (268/10) .

أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴾ التوبة/1–2. وقال سبحانه: ﴿ فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ التوبة/5.

وقال تعالى: ﴿ انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ التوبة/41.

وهؤلاء المنافقون يرون الجهاد جولة خاسرة , ومغرماً لا مغنم فيه , فَلِمَ يُلقون بأنفسهم أو يدفعون أموالهم في حرب لا يؤمنون بأهدافها , ولا يرون أنفسهم طرفاً فيها , فهم لا يؤمنون بالقرآن الذي حث على الجهاد , ولا يوحدون الله الذي أنزل الفرقان , ولا يصدقون الرسول صلى الله عليه وسلم الذي يدعوهم إلى ذلك .

أقول: لما نزلت السورة الكريمة بهذه الأوامر , وكان نزولها مصاحباً لغزوة تبوك, وما فيها من العسرة , جاء الحديث مفصلاً عن مواقف المنافقين في الجهاد , وتخلفهم عنه , وكذبهم في الاعتذار عن الخروج أو الإنفاق في سبيل الله , يقول سبحانه: ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ التوبة/42 ، ويقول سبحانه: ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (94) سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (95) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ التوبة/94–96.

الرابع: تبرير معاصيهم وأعمالهم الفاجرة وأفعالهم الشنيعة , كما قال سبحانه: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (61) يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ التوبة/61–62.

عن قتادة قال: " ذُكر لنا أن رجلاً من المنافقين قال: والله إن هؤلاء لخيارنا وأشرافنا, ولئن كان ما يقول محمد حقاً لهم شر من الحمر , فسمعها رجل من المسلمين فقال: والله إن ما يقول محمد لحق ولأنت شر من الحمار , فسعى بها الرجل إلى نبي الله صلى الله عليه وسلم فأخبره فأرسل إلى الرجل فدعاه , فقال: " وما حملك على الذي قلت؟ " فجعل يلعن[1] ويحلف بالله ما قال ذلك , وجعل الرجل المسلم يقول: اللهم صدّق الصادق وكذّب الكاذب , فأنزل الله تعالى في ذلك: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾ [2]

ولما اتخذ المنافقون: ﴿ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ التوبة/107. هتك الله سترهم , وفضح أمرهم , وأبان جريمتهم , وأخبر رسوله صلى الله عليه وسلم بما هموا به وما أرادوا فجاؤوا كاذبين: ﴿ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى ﴾ التوبة/107 فقال الله عنهم: ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ التوبة/107.

ولما كان اتخاذهم للمسجد الذي هو شعار المؤمنين قد يُلبس على بعض من لم يعرف حقائقهم جاء وصفهم بالكذب بعدد من المؤكدات, وهي:

1– الابتداء بلفظ الجلالة , لبيان أن الذي يشهد عليهم بكذبهم هو الله , وهو أعدل الحاكمين , أصدق الشاهدين .

(1) أي يلعن نفسه . انظر: النهاية (255/4) .

(2) أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم . انظر: الدر المنثور (423/7) .

2- الإتيان بـ (إن) المؤكدة .

3- التأكيد باللام في قوله: ﴿ لَكَاذِبُونَ ﴾ .

4- الإتيان بصيغة الشهادة دون الخبر المجرد .

ولما كان الكذب أبرز صفات المنافقين , وأخص خلالهم فقد أمر الله المؤمنين الموحدين في هذه السورة بملازمة الصدق والكون مع أهله فقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ التوبة/119.

المطلب الثاني:

الجبن

الجبن صفة ذميمة وخلة قبيحة , والرجال الأسوياء الأقوياء يتنزهون عن مثل هذه الصفة, فضلاً عن المؤمنين الذين يعلمون أن ما أصابهم لم يكن ليخطئهم, وما أخطأهم لم يكن ليصيبهم , وقد كان من دعائه صلى الله عليه وسلم: " اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن , والعجز والكسل , والجبن والبخل , وظلع الدين وغلبة الرجال " [1].

والمنافقون وهم مستودع كل صفة ذميمة , وأهل كل خصلة قبيحة تمثل صفة الجبن أبرز سماتهم , إذ إن الحادي على النفاق أصلاً – وهم مذموم بكل المعايير– خوف وهلع , وجبن وفَرَق يمنع المنافق من إظهار دينه وسوء نيته فيُبقي عليها في قلبه , وإن كان يلبس للناس في الظاهر مسوح الضأن .

وجبن المنافقين تجليه لنا هذه السورة أوضح ما يكون في أمرين اثنين:

الأول: زعمهم الإيمان وإظهاره مع إبطان الكفر وإسراره , والتظاهر بموالاة المؤمنين وهم يضمرون الحب للكافرين , وإظهار الفرح بنصر المؤمنين وهم يتمنون لو تخطفهم الطير وانتصر عليهم إخوانهم من المشركين وأهل الكتاب .

كل هذه المراوغة وهذا الخداع يُظهر لنا وصفاً جلياً من أوصاف المنافقين ألا وهو

---

(1) رواه البخاري كتاب الدعوات باب الاستعاذة من الجبن والكسل , رقم (6369) , ورواه مسلم بنحوه , كتاب الذكر , باب التعوذ من العجز والكسل رقم (6873) عن أنس رضي الله عنه .

الجبن: ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ﴾التوبة/56 ولكن لم كل هذا ؟ وما الداعي له ؟ ﴿ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴾ التوبة /56 .

يقول الطبري: " يقول تعالى ذكره: ويحلف بالله لكم – أيها المؤمنون – هؤلاء المنافقون كذباً وباطلاً – خوفاً منكم – ﴿ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ﴾ في الدين والملة . يقول تعالى مكذباً لهم: ﴿وَمَا هُمْ مِنْكُمْ ﴾ أي: ليسوا من أهل دينكم وملتكم , بل هم أهل شك ونفاق ﴿وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴾ يقول: ولكنهم قوم يخافونكم , فهم خوفاً منكم يقولون بألسنتهم: إنا منك ليأمنوا فيكم فلا يقتلوا " . أهـ[1].

وقال الراغب في المفردات: " الفَرَق: تَفَرُّق القلب من الخوف , واستعمال الفرق فيه كاستعمال الصَّدع والشَّقِّ فيه " . أهـ [2].

ويقول ابن عاشور: " والفَرَق: الخوف الشديد , واختيار صيغة المضارع في قوله: ﴿ وَيَحْلِفُونَ ﴾ وقوله: ﴿ يَفْرَقُونَ ﴾ للدلالة على التجدد وأن ذلك دأبهم .

ومقتضى الاستدراك أن يكون المستدرك: أنهم ليسوا منكم , أي: كافرون , فحذف المستدرك استغناء بأداة الاستدراك , وذكر ما هو كالجواب عن ظاهر حالهم من الإيمان بأنه تظاهر باطل , وبأن الذي دعاهم إلى التظاهر بالإيمان في حال كفرهم هو أنهم يفرقون من المؤمنين , فحصل إيجاز بديع في الكلام إذ استغنى بالمذكور عن جملتين محذوفتين".أهـ [3].

إنها صورة من صور جبن المنافقين , فليس لديهم من الشجاعة ما يجعلهم كالكافر

---

(1) تفسير الطبري (502/11) .

(2) المفردات (فرق) (ص634) . وانظر: لسان العرب (فرق) (304/10) .

(3) التحرير والتنوير (230/10) .

المجاهر , الذي أعلن عداوته ,وأشهر كفره ,فعرفهم المسلمون واستراحوا من غوائلهم .
ولما كان الجبن من صفات المنافقين فإن المتأمل الراصد لظاهرة النفاق يلاحظ أنها بين مدٍّ وجزر , وقوة وضعف , وإعلان وإسرار .

فكل ما قويت شوكة المسلمين وعزت دولتهم انخزل النفاق وتوارى وبالغ في السرية, وإذا ما ضعفت الدولة المسلمة , رفع عقيرته , وأظهر الهمز واللمز , وأصبح لا يستحي من الإعلان .

ولو درسنا التاريخ , واستعرضنا مواقف النفاق لوجدنا هذه الحقيقة تبرز بجلاء .

لقد ابتعث الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم في أمة وثنية يعبدون الأصنام ويتقربون للأوثان , ولما دعاهم إلى عبادة الله تعالى وحده نفروا منه وناصبوه العداء , وآمن به طائفة من قومه أكثرهم من الضعفاء والمماليك , فكان الإسلام أول أمره ضعيفاً وأتباعه أذلة غرباء, وكان الكفر ظاهراً والغلبة لأهله فلم يكن ثَمَّ نفاق ولا منافقون , بل كان أهل الإسلام ربما استخفوا بإيمانهم خوفاً من بطش الكافرين .

ثم لما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة لم يكن له قوة ولا لأصحابه منعة, فلما اعتز الإسلام بعد غزوة بدر بدأ النفاق وظهر المنافقون حين قال عبدالله بن أبي: "هذا أمرٌ قد توجه فبايعوا الرسول صلى الله عليه وسلم "[(1)] مع بقائهم على الكفر.

يقول الحافظ ابن كثير: " وإنما نزلت صفات المنافقين في السور المدنية , لأن مكة لم يكن فيها نفاق بل كان خلافه ... فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وأسلم من أسلم من الأنصار ولم يكن إذ ذاك نفاق أيضاً لأنه لم يكن للمسلمين بعد

(1) رواه البخاري , كتاب التفسير , باب (ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً) رقم (4566) .

شوكة تُخاف, بل كان عليه الصلاة والسلام وادع اليهود وقبائل كثيرة من أحياء العرب حوالي المدينة , فلما كانت وقعة بدر العظمى وأظهر الله كلمته وأعلى الإسلام وأهله قال عبدالله بن أبي بن سلول – وكان رأساً في المدينة – : " هذا أمر قد توجه " فأظهر الدخول في الإسلام , ودخل معه طوائف ممن هو على طريقته ونحلته وآخرون من أهل الكتاب , فمن ثم وجد النفاق في أهل المدينة ومن حولها من الأعراب , فأما المهاجرون فلم يكن فيهم أحد ؛ لأنه لم يكن أحد يهاجر مكرهاً بل يهاجر ويترك ماله وولده وأرضه رغبة فيما عند الله في الدار الآخرة " . أهـ [1].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية: " عامة السور المدنية يذكر فيها المنافقون " . أهـ [2].

ولقد كان النفاق أول أمره قوياً , وكان المنافقون ينالون من المؤمنين ويؤذونهم , ويوضعون خلالهم ويبغونهم الفتنة , وكان النبي صلى الله عليه وسلم يصبر على أذاهم كما أمره ربه حيث قال: ﴿ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ﴾ الأحزاب/48 ، ذلك أن دولة الإسلام بعد لم تكن قوية , ولم يكن المنافقون يرهبون الإسلام وأهله , فلما أعز الله الدين وأهله ضعف النفاق, وتوارى أهله خوفاً على أنفسهم.

يقول شيخ الإسلام: " فبدرٌ كانت أساس عز الدين , وفتح مكة كانت كمال عز الدين, فكانوا قبل بدر يسمعون الأذى الظاهر ويؤمرون بالصبر , وبعد بدر يؤذون في السر من جهة المنافقين وغيرهم فيؤمرون بالصبر عليه , وفي تبوك أمروا بالإغلاظ للكفار والمنافقين, فلم يتمكن بعدها كافر ولا منافق من أذاهم في مجلس خاص ولا عام , بل

(1) المرجع السابق (الموضع نفسه باختصار) .

(2) مجموع الفتاوى (463/7) .

مات بغيظه , لعلمه بأنه يقتل إذا تكلم"[1].

ولو ذهبنا ننظر إلى جانب آخر يوضح لنا هذه الحقيقة ويجليها:

إن النفاق إنما يشتد في لحظات الضيق والمحنة , ويختفي في لحظات القوة والبأس , وانظر هذا في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم , فهم إنما يشتد إرجافهم إذا ادلهت الخطوب وتوالت الكروب , وكان المسلمون في حالة انشغال عنهم , وإذا ما تفرغ المسلمون وزالت الأخطار كانوا أخنس الناس , انظرهم في مسير المسلمين لأحد .

وانظرهم في غزوة الأحزاب .

وانظرهم في مسير المسلمين لتبوك .

تتجلى هذه الحقيقة بوضوح , وتظهر بجلاء .

وهنا تبرز لنا الصفة الكبرى من صفات المنافقين ألا وهي جبنهم وخوفهم

الثاني: قعودهم عن الجهاد وتخلفهم عن الغزو , وهذا الأمر يحتل من السورة حيزاً كبيراً, وجزءاً مهماً , فالسورة جاءت لبيان الحالة النهائية من علاقة المسلمين مع الكفار التي فيها نبذ العهود , والأمر بقتال المشركين كافة , وهذا يحتاج إلى نفير عام , وهنا تظهر شريحة تعيش في المجتمع المسلم لا تود الجهاد , وتنفر منه, وترغب عنه , فوصفها الله تعالى أوضح وصف , وعالجها أحسن علاج .

وهذا الجبن تعرضه السورة على أشكال شتى :

فمن ذلك تذرعهم بالأعذار عن الخروج وهي أعذار كاذبة , لأنهم يجدون أنفسهم خالين من دوافع الخير التي تسعفهم في أزماتهم الإيمانية , وإنما يجدون من لَدَد النفاق طرقاً للمعاذير , ومذاهب للأباطيل والكواذب , ولذا لما رأوا الجدَّ في التأهب للجهاد , ورأوا

(1) الصارم المسلول على شاتم الرسول ص (220) .

صوارم العزائم تشرق في وجوه صادقي الإيمان أخذتهم الرهبة , واستحوذ عليهم الذعر والجبن , وجاؤوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم مصفرة وجوههم , يابسة جلودهم , كأنهم الأشباح خارجة من قبورها , ينتحلون الأعذار , ويفترون الأكاذيب ليقعدوا مع الخوالف , قال تعالى عن بعضهم: ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي ﴾ التوبة /**49**.

بل إن بعضهم من ذوي الصفاقة , غلاظ الأكباد , بجاح العيون , الذين نزع الله تعالى منهم كل حياء , والذين بلغ منهم الخوف مبلغه يتخلفون دون اعتذار: ﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ التوبة /**90**.

ومن ذلك أنهم إن خافوا أن لا يقتنع المسلمون بأعذارهم , أو يشكوا في أمرهم فإنهم لا يتورعون عن إلقاء الأيمان الفاجرة , كل هذا ليتخلصوا من الجهاد ويتخلفوا عنه [1] .

ومن ذلك أنهم حين يضطرون للخروج تبلغ منهم الروح الحلقوم , والقلوب الحناجر ويستولي عليهم الرعب ويأخذ من قلوبهم كل مأخذ.

وهم يرون الجهاد جولة خاسرة سواء انتصر المسلمون أو الكفار , وما لهم هم ؟ فهم لا يحملون همَّ الإسلام ولا يعنيهم أمره , ولذا فهم يرون أن خروجهم بأنفسهم قتل بدون سبب , وهلاك بلا داع .

" بل لقد كانت انتصارات المسلمين تُفعم قلوب المنافقين غيظاً وحنقاً , وتعترض في حلاقيمهم غصة تكتم أنفاسهم , فلا يتنفسون إلا من وراء أستار الظلام لأنهم جبناء رعاديد, ليس لديهم من الشجاعة ما يجعلهم يظهرون ما يبطنون , ولا يستطيعون أن

---

(1) انظر: محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم (444/4) .

يقفوا في ميادين القتال هنا أو هناك " [1]

المطلب الثالث:

قبض الأيدي

البخل صفة ذميمة , ورد الشرع بذمها والتنفير منها , وقد كان من دعائه صلى الله عليه وسلم: " اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن, والعجز والكسل , والجبن والبخل " [2] .

والبخل أبرز صفات المنافقين , بل هو أحد الأسباب التي تورث النفاق في القلب , وتهيجه وتنميه كما قال الله تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آَتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (75) فَلَمَّا آَتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (76) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ التوبة/75–77.

وفي الحديث: " أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لبني سلمة: من سيدكم ؟ قالوا: الجدُّ بن قيس , على أننا نبخله , فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وأي داء أدوأ من البخل ؟ ولكن سيدكم الفتى الجعد الأبيض بشر بن البراء بن معرور " [3].

---

(1) المرجع السابق (220/4) .

(2) سبق تخريجه (ص 61) .

(3) رواه الحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي (219/3) , ورواه ابن سعد في الطبقات (571/3), وابن عدي في الكامل (403/3) , وأورده ابن حجر في الإصابة (155/1) وذكر له شواهد , وعزاه المتقي الهندي في كنز العمال(296/13) إلى أبي نعيم .

فهذا أحد المتهمين بالنفاق معروف بين قومه وعشيرته بالبخل والشح وقبض الأيدي [1] .

إن هذا يوضح لنا أن النفاق تلك البذرة الخبيثة لا تنبت إلا في أرض قذرة , وأن النفوس السوية الطاهرة من أخلاق السوء وصفات الانحراف لا يمكن أن تجد فيها تلك البذرة مكاناً صالحاً للنماء .

وهو يفيدنا أن النفاق ينمي صفات السوء ويقويها , وتجد في ظله كل دوافع النمو والتشعب , إذ هو خلة قائمة على الانحراف فبالتالي يشجع كل مظهر من مظاهر الانحراف ولا ينكره , بخلاف الإيمان الذي إذا وقر في القلب فإنه يقضي على هذه الظواهر والمظاهر , ويطاردها حتى ينقي النفس منها ويطهر السلوك من أوضارها , لأنه خصلة قائمة على التقوى والإيمان بالله , والتصديق بما عنده , والرغبة إليه ؛ فلذلك يبيد كل ما يصادم هذا المعنى أو يزاحمه حتى تطهر النفس وتسمو وتشرق الروح في عالم خالٍ من كل مظاهر الانحراف الفكري أو الاعوجاج السلوكي .

إن النفس البشرية ضعيفة شحيحة إلا من عصم الله , ولا تطهر من هذا الشح إلا أن تعمر بالإيمان , وترتفع عن ضرورات الأرض , وتنطلق من قيود الحرص على النفع القريب , لأنها تؤمل في خلف أعظم , وتؤمل في رضوان من الله أكبر , والقلب المؤمن يطمئن بالإيمان فلا يخشى الفقر بسبب الإنفاق لأنه يثق بأن ما عند الناس ينفد وما عند الله باق , وهذا الاطمئنان يدفع به إلى إنفاق المال في سبيل الله تطوعاً ورضى وتطهراً وهو آمن مغبته , فحتى لو فقد المال وافتقر منه فإن له عوضاً أعظم عند الله تعالى .

فأما حين يقفر القلب من الإيمان الصحيح , فالشح فطري يهيج في نفسه كلما دعي

---

(1) راجع: تفسير القرآن لعبدالرزاق (277/2) , الإصابة (239/1) , المنافقون وشعب النفاق ص (208) .

إلى نفقة أو صدقة , والخوف من الفقر يتراءى له فيقعد به عن البذل, ثم يبقى سجين شحه وخوفه بلا أمن ولا قرار .

وإذا كان البخل من صفات المنافقين فإنهم يزدادون بخلاً وشحاً إذا كان الإنفاق في سبيل الله تعالى , لأنهم لا يؤمنون بالله تعالى , ولا يرجون الدار الآخرة , ولا يثقون في الخلف منه تعالى, قال الله تعالى في صفتهم: ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ التوبة /67.

قال الطبري: " وقوله ﴿ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾ يقول: ويمسكون أيديهم عن النفقة في سبيل الله , ويكفونها عن الصدقة , فيمنعون الذي فرض الله لهم في أموالهم ما فرض من الزكاة حقوقهم " . أهـ [1].

وقال الألوسي: " وقبض اليد كناية عن الشح والبخل , كما أن بسطها كناية على الجود ؛ لأن من يعطي يمد يده بخلاف من يمنع".أهـ [2].

وإذا ما أنفق هؤلاء فإنهم ينفقون كارهين خشية أن يطلع المسلمون على نياتهم وحقيقة

---

(1) تفسير الطبري (548/11)

قال أبو حيان: " وقبض الأيدي عبارة عن عدم الإنفاق في سبيل الله , قاله الحسن . وقال قتادة: عن كل خير . وقال ابن زيد: عن الجهاد وحمل السلاح في قتال أعداء الدين . وقال سفيان: عن الرفع في الدعاء . وقيل: ذلك كناية عن الشح في النفقات في المبارّ والواجبات " . أهـ

البحر المحيط (69/5) .

وظاهرٌ أن بعض هذه الأقوال يدخل في بعض . والله أعلم .

(2) روح المعاني (192/10) .

إيمانهم الكاذب كما قال تعالى: ﴿ وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ التوبة /54 ، وهذا هو السبب في ردِّ هذه النفقة , إذ إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً , وهو تعالى لا يقبل صدقة خرجت من قلب كاره , أراد بها الناس ولم يرد بها الله تعالى .

المطلب الرابع:

الغدر

عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً , ومن كانت فيه خصلة كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا ائتمن خان , وإذا حدث كذب , وإذا عاهد غدر , وإذا خاصم فجر "[1].

الغدر صفة من صفات المنافق البارزة , وسمة من سماته اللازمة , وإن أعظم مظهر من مظاهر الغدر عند المنافق أنه يعيش بين ظهراني المؤمنين يظهر لهم الخير والإيمان وهو يبطن لهم الشر والكيد , وود لو أنه نال منهم وأوقع بهم .

والسورة الكريمة تعرض لنا مشهداً من مشاهد الغدر التي لا يفتأ المنافقون يمارسونها , يقول تعالى: ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ

---

(1) رواه البخاري , كتاب الإيمان , باب علامة المنافق (89/1) (فتح الباري) , ومسلم , كتاب الإيمان , باب خصال المنافق (46/2) (بشرح النووي) .

يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ التوبة/74.

قال ابن كثير: " وقوله: ﴿ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ﴾ ... ورد أن نفراً من المنافقين هموا بالفتك بالنبي صلى الله عليه وسلم وهو في غزوة تبوك في بعض تلك الليالي في حال السير , وكانوا بضعة عشر رجلاً, قال الضحاك: ففيهم نزلت هذه الآية .

وذلك بينٌ فيما رواه الحافظ أبو بكر البيهقي في كتاب (دلائل النوة) من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: كنت آخذاً بخطام ناقة رسول صلى الله عليه وسلم أقود به , وعمار يسوق الناقة حتى إذا كنا بالعقبة فإذا أنا باثني عشر راكباً قد اعترضوه فيها, قال: فصرخ بهم فولوا مدبرين , فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل عرفتم القوم ؟ قلنا: لا , يا رسول الله ولكنا عرفنا الركاب , قال: هؤلاء المنافقون إلى يوم القيامة , وهل تدرون ما أرادوا ؟ قلنا: لا . قال: أرادوا أن يزحموا رسول الله في العقبة , فيلقوه منها ... الحديث " (1)

فهذه الآية بينت كفرهم وكذبهم في قوله: ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ ﴾ ثم أوضحت غدرهم: ﴿ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ﴾ ثم أبرزت شناعة

---

(1) تفسير ابن كثير (623/4) مختصراً .

والحديث رواه البيهقي في الدلائل , باب رجوع النبي صلى الله عليه وسلم من تبوك (256/5) ورواه بنحوه الإمام أحمد (453/5) برقم (23843) , ولهذه القصة شاهد عند الإمام مسلم , كتاب صفات المنافقين رقم (7037) . انظر: تفسير ابن كثير (22/4) وهذا القول في تفسير الآية هو قول مقاتل والكلبي والزجاج والزمخشري .

انظر: معاني القرآن للزجاج (461/2) الكشاف (69/3) , زاد المسير (471/4) .

هذا الغدر ودناءته , إنه غدر بمن أنعم عليهم وتفضل, فهم لا يؤثر فيهم المعروف ولا تأسرهم الحسنة , ولا يعمل فيهم الإحسان , فقد طبع النفاق على قلوبهم فاستمرؤا كل خصلة ذميمة , واستحسنوا كل خلة قبيحة: ﴿ وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ .

" أي وما للرسول عندهم من ذنب إلا أن الله أغناهم ببركته ويمن سفارته, ولو تمت عليهم السعادة لهداهم الله لما جاء به ... وهذه الصيغة تقال حيث لا ذنب كما قال تعالى: ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ البروج/8"[1].

وهذا كقول الشاعر:

ولاعيبَ فيهم غيرَ أنَّ سيوفهم ∴ بهن فُلولٌ من قراعِ الكتائب [2]

(1) تفسير ابن كثير (623/4) .

(2) البيت للنابغة .

انظر: ديوانه: (ص44) , معجم مقاييس اللغة (فل) (434/4) , البحر المحيط (74/5).

والمعنى: أنه لا عيب في هؤلاء الممدوحين إلا أن سيوفهم بهن انثلام من الضرب في الحرب, وهذا ليس عيباً على الحقيقة , بل هو مدح , فمراده: أنه ليس لهم عيب .

المطلب الخامس:

عدَم الفقه

الفقه نعمة عظيمة يمنحها الله تعالى من يشاء من عباده يرفع درجاتهم بها في الدنيا والآخرة: ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ المجادلة/11.

والفقه الحقيقي: هو الفهم عن الله تعالى خطابه , والعمل بموجب هذا الفهم .

وينقص من فقه المرء بحسب ما ينقص من ذلك .

وقد نفى الله تعالى عن المنافقين الفهم والفقه , لأن الفهم التام , والعلم الكامل يستلزم العمل بموجبه , وإذا لم يتم ذلك جاز نفيه , لأن ما لم يتم ينفى , وكذلك نفى الله تعالى عنهم العقل مع العلم بأن لهم عقولاً يدبرون بها معاشهم , ولكن لما كانوا يعملون ما يضرهم مع علمهم به صاروا لا يعقلون .

ومثل هذا ما قصه الله تعالى عن أصحاب النار حين قالوا: ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ الملك/10.

فالمقصود أن الفهم التام والعلم التام والعقل التام يستلزم العمل بموجبه من فعل الأمر واجتناب النهي , وحيث كان المنافقون بمعزل عن هذا الأمر جاز نفيه عنهم [1] , فهم قد حرموا فهم الانتفاع , وإن كانوا يفهمون معاني الألفاظ لكنهم لا ينتفعون بها .

وإن أبرز أسباب هذا الحرمان أنهم لم يبذلوا السبب , ولم يريدوا ذلك , فهم يكرهون الطاعة , ويكرهون الخير ابتداءً , فلم يصيخوا له السمع فحرموا منه , ولذا قال الله تعالى عنهم: ﴿ وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ

---

(1) راجع بتوسع: الفتاوى (20/7– 27) .

انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ التوبة /127.

والفقه عندهم معدوم بكل صوره وأشكاله:

فهم لا يفقهون ما لله تعالى من الكبرياء والعظمة , وما يتصف به من صفات الكمال والجلال , ولذا فهم يظنون أنهم يخدعون الله تعالى, وهم لا يخدعون إلا أنفسهم .

وهم لا يفقهون سنن الله الكونية والقدرية في أن الكاذب والمخادع لا يدوم له ذلك, وأنه سيأتي الزمان الذي ينكشف فيه .

وليت كثيراً من المنافقين الذين يلوحون بالشعارات , ويخدعون بها الجماهير , ويتاجرون بالمبادئ عن طريق الكلام يفقهون هذه الحقيقة , ولكنهم لا يفقهون .

وهم لا يفقهون حقيقة هذا الدين وأنه صلاح للدنيا والآخرة , ولذا فهم يضعون كل عقبة كؤود دون قيامه على وجه الأرض أو تحقيقه على بساط الواقع وحكم الناس به .

فتارة يقولون لا صلة له بالحياة وهو ديانة روحيه فحسب .

وتارة يتعللون بالموانع الطائفية .

وتارة أخرى يتحدثون عن تقدم العصر , وأن الذي أنزل في الزمن الغابر لا يواكب الزمن الحاضر .وتارة يتحدثون عن أنه كبت للحريات , واضطهاد للفكر ومعاداة للتقدم

وما بهم جميعاً إلا أنهم لم يفقهوا هذا الدين ولم يعرفوا حقيقته , ولم يتبصروا فيما يدعو إليه , وإنما شرقوا به كما شرق به أسلافهم من قبل فنصبوا له العداء دون أن يذوقوا حلاوته أو يجدوا ثمرته .

وهم أيضاً لا يدركون ولا يفقهون عاقبة عملهم ومآل أمرهم وتآمرهم , ولا يحسون أنهم يسيرون في طريق يودي بهم في نهايته إلى نار جهنم ؛ بل وإلى الدرك الأسفل من النار ﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ التوبة /81.

المطلب السادس:

الفرح بمصائب المؤمنين

بالنظر إلى حالة المنافقين التي صورها القرآن الكريم نقول:
إنهم فئة تعيش وسط المؤمنين , تخالفهم باطناً في المنهج والمعتقد والفكر والسلوك, ولا تستطيع إظهار ذلك لجبنهم وخوفهم وحرصاً على مصالحهم المادية والمعنوية , مع كرههم الشديد للمسلمين ولدينهم .
هذه صورة المنافقين فما تظن من أولئك تجاه مجتمعهم المسلم .
إنهم – لا شك – سيفرحون بكل نقيصة تحل بالمسلمين , وستسرهم ويبشون لها ويهشون , بل ويسعون فيها بكل ما أوتوا من قوة .
وفي المقابل سيحزنون إذا حاز المسلمون على تقدم أو نصر , أو كسبوا مواقع جديدة مادية أو معنوية .
قال تعالى: ﴿ إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ ﴾ التوبة /50.
يقول ابن كثير: " يعلم تبارك وتعالى نبيه بعداوة هؤلاء له , لأنه مهما أصابه من ﴿ حَسَنَةٌ ﴾ أي: فتح ونصر وظفر على الأعداء , مما يسره ويسر أصحابه ساءهم ذلك , ﴿وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ ﴾ أي: قد احترزنا من متابعته من قبل هذا ﴿ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾".أهـ [1].

---

(1) تفسير ابن كثير (102/4) .

وقال تعالى: ﴿ إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ﴾ آل عمران/120 فهم لم يتكلموا عند المسلمين , ولكن يأبى الله إلا أن يظهر حقدهم وكيدهم وحنقهم على المسلمين , وبغضهم لهم على فلتات ألسنتهم أو صفحات وجوههم أو تصرفاتهم وتحركاتهم .

وفرح المنافقين بمصائب المؤمنين لأنه يعجل – في نظرهم القاصر– بزوال هذا الدين الذي منعهم شهواتهم ولذاتهم , وكبت مطامعهم وآمالهم الفاجرة , كما أن حزنهم عند تقدم المسلمين وانتصارهم لأنهم يرون أنه ازدياد لهذا الدين الذي يَحُد من أطماع السوء عندهم.

ثم لما ذكر تعالى واقع المنافقين لقَّن المؤمنين حجتهم فقال: ﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ التوبة /51.

فكل ما حصل ويحصل من نصر أو هزيمة , من سيئة أو حسنة فبقضاء الله وقدره وأمره وخلقه , وإذا كان كذلك فالمؤمنون يفوضون أمورهم إليه ويتوكلون عليه ويرجون الخير منه وحده , ولا يعتمدون على سواه في جلب مصالحهم ودفع المضار عنهم .

وفي هذا تنديد بالمنافقين الذين يتوكلون على غير الله تعالى من زعمائهم ورؤسائهم من اليهود وغيرهم , ويرون أنهم قد ينفعونهم في الحد من امتداد هذا الدين وانتشاره .

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴾ التوبة /52 .

ماذا تنتظرون – أيها المنافقون – أن يقع بنا ؟

إنه أحد أمرين حسنين محبوبين أيها وقع فلا نبالي:

النصر والتمكين ونشر هذا الدين في أرجاء المعمورة أو الاستشهاد في سبيل الله ؛ نصرة

لدينه ورفعة لكلمته . قال ابن جرير: " يقول تعال ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: قل يا محمد لهؤلاء المنافقين الذين وصفت لك صفتهم , وبينت لك أمرهم: هل تنتظرون بنا إلا إحدى الخلتين اللتين هما أحسن من غيرهما ؛ إما ظفراً بالعدو وفتحاً لنا بغلبتنا هم , ففيها الأجر والغنيمة والسلامة , وإما قتلاً من عدونا لنا , ففيه الشهادة والفوز بالجنة والنجاة من النار , وكلتاهما مما يُحبُّ ولا يُكره " . أهـ [1].

ويا له من خيار عظيم لمن وفق له , إنه في نظركم خسارة وتعب , وجهد ونصب في غير طائل ولا نافع , وذلك لقصوركم وكفركم ,وأفقكم المحدود الذي لا يجاوز النظرة الدنيوية أما من آمن وصدق فإنه ينظر إلى الأفق العالي , إلى ما أعده الله تعالى للمتقين ولا يبالي بما أصابه في هذه الدنيا .

ولكن أنتم – أيها المنافقون – ما الذي ينتظركم وتنتظرونه ؟

إما أن يحل عليكم عذاب من الله تعالى لا سبب لنا فيه , أو أن يسلطنا عليكم فيعذبكم بأيدينا [2]. فتربصوا بنا الخير إنا تربص بكم الشر .

والمؤمن حين يعرف هذه الحقيقة عن المنافقين , ويتصورها تصوراً كاملاً , ويدرك أن الله تعالى ذكرها لنا في كتابه لتكون بياناً عن منهج المنافقين في كل زمان ومكان .. حين يعرف المؤمن هذا كله فإنه يبقى رابط الجأش , متذكراً كلام الله تعالى عنهم , وهو يطالع

---

(1) تفسير الطبري (496/11) .

قال ابن كثير: " قاله ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وقتادة وغيرهم " , (102/4) أي: الشهادة أو الظفر .

(2) انظر: تفسير الطبري (496/11) , الكشاف (53/3) , تفسير البيضاوي (408/1) , تفسير ابن كثير (102/4) .

معالم الفرح ومظاهر الاستبشار حين يبتلى بعض المسلمين ببلية أو تصيبهم نكبة , أو يحل بهم إخفاق في محفل من المحافل , وهذا ولا شك صدى النفاق يظهر وتلوح معالمه حتى ولو زعم أولئك حرصهم على الدين ودفاعهم عنه , ولكن هيهات فالمؤمن لا يفرح بمصاب أخيه ولا يسر به حتى ولو خالفه في بعض الاجتهادات والمواقف , والآراء والأوليات فإن لحمة الدين تبق أشد , وصلة الإيمان أوثق ... والله ولي المؤمنين

المطلب السابع:

إخلاف الوعد

الوفاء بالوعد سمة الرجال الأقوياء الصرحاء , وإخلاف الوعد صفة أشباه الرجال الضعفاء الجبناء المترددين .

وهي صفة تنزع الثقة بين أفراد المجتمع , وتولد الشكوك والريبة , وتضعف الروابط, ولذا فقد أمر الله تعالى بالوفاء بالوعد أمراً مطلقاً ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾المائدة /1.

وقد عدَّ رسوله صلى الله عليه وسلم إخلاف الوعد من صفات المنافقين فقال: " أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً , وذكر منهن: إذا وعد أخلف"[1].

إن العهود والعقود والمواثيق تختلف قوة ولزوماً , وأعظمها حقاً وأولاها وفاءً حق الله وعهده , ولما كان المنافقون أعظم الناس خلفاً للوعد كانوا يخلفون وعد الله وما عاهدوه: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ

(1) سبق تخريجه .

(75) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (76) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾التوبة /75–77.

ونحن نلمس من هذه الآيات أنها نزلت في المنافقين حيث قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ ﴾ والضمير عائد عليهم لأن السياق – سابقه ولاحقه – في الحديث عنهم .

وأياً ما كان سبب النزول [1] فالمقصود هو التحذير من هذه الخصلة الذميمة والأسلوب الفاجر في التعامل مع الله تعالى , وهي نصٌ في أن هذا المنهج يورث النفاق في القلب , فإن المسلم لا يأمن على قلبه فقد تكون هذه نواة النفاق ينمو مع توالي السيئات حتى يختم على قلب المرء . أو يكون سبباً في حصول نفاق مع النفاق الأول فتزداد الظلمة

---

(1) ذكر بعض المفسرين أن هذه الآية نزلت في ثعلبة بن حاطب .

قال بعضهم: هو ثعلبة بن حاطب بن عمرو بن عبيد الأوسي الأنصاري , وقيل: غيره .

وقد أخرج الحديث مطولاً الطبري (578/11) والواحدي في أسباب النزول (ص257) والبغوي (75/4) والطبراني في الكبير (260/8) رقم (7873) والبيهقي في الدلائل (289/5) وغيرهم .

وهذا الحديث لا يصح ؛ فيه علي بن يزيد الألهاني , قال عنه البخاري: " منكر الحديث".

وضعَّفه الإمام أحمد وابن أبي حاتم والنسائي والترمذي والدارالقطني وغيرهم .

انظر: التاريخ الكبير (301/3/2) تهذيب التهذيب (396/7) .

وقال الحافظ العراقي عن هذا الحديث: " رواه الطبراني بإسناد ضعيف " . أهـ تخريج الإحياء (266/3) وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف (ص77): " إسناده ضعيف جداً " . أهـ

وضعفه الهيثمي والمناوي والألباني وغيرهم .

انظر: مجمع الزوائد (32/7) فيض القدير (527/4) ضعيف الجامع الصغير (125/4) .

ويستحكم الضلال وقد قال الله تعالى: ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ ﴾ التوبة/77.

فإخلاف الوعد الذي اتصفوا به كان باعثاً على النفاق في قلوبهم ومحرضاً عليه , وجالباً له .

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجميعن، وبعد/

فتلك أبرز صفات المنافقين التي قصها الله تعالى علينا في سورة التوبة، وما أجمل كلام ابن القيم رحمه الله بعد أن أطال الحديث في صفات المنافقين فقال: "لا تستطل أوصاف القوم فالمتروك –والله– أكثر من المذكور، كاد القرآن أن يكون كله في شأنهم؛ لكثرتهم على ظهر الأرض وفي أجواف القبور، فلا خلت بقاع الأرض منهم لئلا يستوحش المؤمنون في الطرقات، وتتعطل بهم أسباب المعايش...الخ" [1].

وفي ختام البحث أذكر بأبرز نتائجه:

1– عناية القرآن بذكر أمر النفاق، وبيان خطره، وتعداد صفات المنافقين، وخصوصاً في سورة التوبة التي تسمى (الفاضحة) عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس رضي الله عنهما : "سورة التوبة؟ قال: التوبة؟ بل هي الفاضحة، ما زالت تنزل: ومنهم، ومنهم، حتى

(1) مدارج السالكين (358/1).

ظنوا أن لا يبقى منا أحد إلا ذكر فيها" [1].

2- أن على المؤمن أن يحذر هذه الصفات ويجتنبها؛ إذ النفاق مرض عضال خفي قد يتسلل إلى المرء وهو لا يشعر بذلك.

3- أطنب القرآن الكريم في ذكر صفات المنافقين ليحذرهم أهل الإيمان، ويأمنوا مكرهم، ويكونوا على بصيرة من أمرهم.

4- تنوعت صفات المنافقين، وتعددت مخازيهم؛ في جانب العقيدة والعبادة والخلق والسلوك في تعاملهم مع الله تعالى، ومع عباده.

5- قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ ﴾ العنكبوت/ 51. ففي القرآن كفاية في بيان منهج المنافقين وإيضاح صفات أهل النفاق.

والله تعالى أعلى وأعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(1) رواه مسلم، كتاب التفسير، باب في سورة براءة والأنفال والحشر، رقم (7558).

فهرس المراجع

- ❖ الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٩هـ.
- ❖ أسباب النزول، علي بن أحمد الواحدي، ت: كمال زغلول، دار الكتب العلمية، ط. الأولى، ١٤١١هـ.
- ❖ أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين البيضاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى ١٤٠٨هـ.
- ❖ البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، ت: عادل عبدالموجود، وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى، ١٤١٣هـ.
- ❖ البداية والنهاية، إسماعيل بن كثير، مكتبة المعارف، بيروت، ط الخامسة ١٤٠٤هـ.
- ❖ بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين الفيروزآبادي، المكتبة العلمية، بيروت.
- ❖ البيان في عد آي القرآن، أبو عمرو الداني، ت: غانم قدوري الحمد، مركز المخطوطات والوثائق، الكويت، ط الأولى ١٤١٤هـ.
- ❖ التاريخ الكبير، محمد بن إسماعيل البخاري.
- ❖ تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، المكتبة العلمية، المدينة المنورة، ط. الثالثة، ١٤٠١هـ.

❖ تحفة الأحوذي في شرح جامع الترمذي، محمد عبدالرحمن المباركفوري، دار الفكر، ط الثالثة، ١٣٦٩هـ.

❖ تصحيح الدعاء، بكر بن عبدالله أبو زيد، دار العاصمة، الرياض، ط الأولى، ١٤١٩هـ.

❖ التعريفات، علي بن محمد الجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت،ط الثالثة ١٤٠٨هـ.

❖ تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، مكتبة العلوم والحكم، بيروت، ط الأولى، ١٤٠٨هـ.

❖ تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن)، أبو جعفر بن جرير الطبري، ت: محمود محمد شاكر، راجعه: أحمد محمد شاكر. ونسخة أخرى: دار المعرفة، بيروت (الإحالة عليها من الآية ٢٨ من سورة إبراهيم إلى آخر القرآن).

❖ تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن كثير، ت: عبدالعزيز غنيم، محمد عاشور، محمد البنا، دار الشعب، القاهرة.

❖ تفسير القرآن، عبدالرزاق بن همام الصنعاني، ت: مصطفى مسلم محمد، مكتبة الرشد، الرياض، ط الأولى، ١٤١٠هـ.

❖ التفسير الكبير، فخر الدين الرازي، دار الكتب العلمية،بيروت،ط الأولى، ١٤١١هـ.

❖ تفسير المنار المسمى: تفسير القرآن الحكيم، محمد رشيد رضا، دار المعرفة،

بيروت، ١٤١٤هـ.

❖ تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني، مطبعة دار المعارف، الهند.

❖ تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد، سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب، المكتب الإسلامي، ط. الأولى.

❖ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن بن سعدي، دار الإفتاء بالرياض، ١٤١٠هـ.

❖ التيسير في القراءات السبع، أبو عمرو عثمان الداني، صححه: أوتويرتزل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى، ١٤١٦هـ.

❖ جامع الترمذي، محمد بن عيسى الترمذي، دار السلام، ط الثانية، ١٤٢١هـ.

❖ الجامع الصحيح، الإمام أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، دار السلام، الرياض، ط الثانية، ١٤٢١هـ.

❖ جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، دار الكتب العلمية، بيروت.

❖ الجامع لأحكام القرآن، أبو عبدالله محمد القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

❖ الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، ابن قيم الجوزية، ت: السيد الجميلي، ط. الأولى، بيروت.

❖ الدر المنثور في التفسير بالمأثور، عبدالرحمن جلال الدين السيوطي، ت: عبدالله

التركي، وآخرون، مركز هجر للبحوث، القاهرة، ط الأولى، ١٤٢٤هـ.

❖ دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، أحمد بن الحسين البيهقي، توثيق وتخريج: عبدالمعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى ١٤٠٥هـ.

❖ روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، محمود الآلوسي، دار الفكر، بيروت، ١٤١٤هـ.

❖ زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين ابن الجوزي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط الثالثة، ١٤٢٤هـ.

❖ زاد المعاد، ابن قيم الجوزية، ت: شعيب الأرناؤوط، عبدالقادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط. السابعة، ١٤٠٥هـ.

❖ سلسلة الأحاديث الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، ط الأولى، ١٤١٢هـ.

❖ سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، دار السلام، الرياض، ط الثانية، ١٤٢١هـ.

❖ السنن الكبرى، أحمد بن شعيب النسائي.

❖ السيرة النبوية لابن هشام، ت: مصطفى السقا وآخرون، دار إحياء التراث العربي،

بيروت، ط الأولى ١٤١٥هـ.

❖ شرح الإمام النووي على صحيح الإمام مسلم، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

❖ شرح السنة ، الحسين بن مسعود البغوي ، ت : شعيب الأرناؤوط ، زهير الشاويش ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط الثانية،١٤٠٣هـ.

❖ الصارم المسلول على شاتم الرسول n، شيخ الإسلام ابن تيمية، ت: محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٨هـ.

❖ صحيح الإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري، دار السلام، الرياض، ط الثانية، ١٤٢١هـ.

❖ صحيح الجامع الصغير، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ط. الأولى، ١٣٨٨هـ.

❖ الصحيح المسند من أسباب النزول، مقبل الوادعي، دار الأرقم، ط. الرابعة، ١٤٠٥هـ.

❖ صفة المنافق وذم المنافقين، أبو بكر الفريابي، ت: محمد عطا، دار الكتب العلمية، ط الثانية ١٤٠٧هـ.

❖ الصلاة وحكم تاركها، ابن القيم، ت: تيسير زعيتر، المكتب الإسلامي، ط. الأولى، ١٤٠١هـ.

❖ ضعيف الجامع الصغير، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط. الثالثة، ١٣٩٩هـ.

❖ الطبقات الكبرى، لابن سعد، دار الفكر، بيروت.

❖ ظاهرة النفاق وخبائث المنافقين في التاريخ، عبدالرحمن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق، ط الأولى ١٤١٤هـ.

❖ عارضة الأحوذي شرح صحيح الترمذي، ابن العربي المالكي، دار الفكر.

❖ غاية الأماني في تفسير الكلام الرباني، أحمد الكوراني، ت: محمد السريع، رسالة دكتوراه، جامعة الإمام.

❖ غريب الحديث، ابن الجوزي، ت: عبدالمعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت ، ط. الأولى.

❖ فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، دار المعرفة.

❖ فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٣هـ.

❖ فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، عبدالرحمن بن حسن، نشر دار الإفتاء، الرياض.

❖ فضائل القرآن، أبو عبيد القاسم بن سلام، ت: وهبي سليمان غاوجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى ١٤١١هـ.

❖ فيض القدير، عبدالرؤوف المناوي، دار المعرفة، بيروت.

❖ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، محمود الزمخشري، ت: عادل عبدالموجود، علي محمد معوض، مكتبة العبيكان، الرياض، ط الأولى، ١٤١٨هـ.

❖ لسان العرب، جمال الدين بن منظور، دار صادر، بيروت.

❖ مجاز القرآن، أبو عبيدة معمر بن المثنى، ت: محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي، القاهرة.

❖ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الكتاب العربي، بيروت.

❖ مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع وترتيب: عبدالرحمن بن قاسم، إدارة المساحة العسكرية، القاهرة، ١٤٠٤هـ.

❖ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، عبدالحق بن عطية الأندلسي، ت: عبدالسلام عبدالشافعي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى ١٤١٣هـ.

❖ محمد رسول الله، محمد الصادق عرجون، دار القلم، دمشق، ط. الأولى، ١٤٠٦هـ.

❖ مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن قيم الجوزية، ت: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٩٢هـ.

❖ المستدرك على الصحيحين، أبو عبدالله الحاكم، إشراف: يوسف المرعشلي، دار المعرفة، بيروت.

❖ المسند، للإمام أحمد بن جنبل، المكتب الإسلامي، ط الأولى ١٤١٣هـ.

❖ المسند، أبو يعلى الموصلي.

❖ مشكاة المصابيح، الخطيب التبريزي، ت: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ط. الثانية، بيروت، ١٣٩٩هـ.

❖ المصنف، أبو بكر عبدالرزاق بن همام الصنعاني، ت: حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط الثانية، ١٤٠٣هـ.

❖ معالم التنزيل، الحسين بن مسعود البغوي، ت: محمد النمر، وآخرون، دار طيبة، الرياض، ط الأولى، ١٤٠٩هـ.

❖ معاني القرآن وإعرابه، أبو إسحاق الزجاج، ت: عبدالجليل شلبي، دار الوليد، جدة، ط الأولى، ١٤١٤هـ.

❖ معاني القرآن، سعيد بن مسعدة، الأخفش، ت: محمد أمين الورد، عالم الكتب.

❖ معاني القرآن، يحيى بن زياد الفراء، ت: محمد علي النجار، دار السرور، بيروت.

❖ المعجم الكبير، الطبراني.

❖ معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا، ت: عبدالسلام هارون، دار الجيل، بيروت.

❖ المغني، ابن قدامة المقدسي، ت: عبدالله التركي، عبدالفتاح الحلو، دار عالم

الكتب، ط. الثالثة، ١٤١٧هـ.

❖ مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، ت: صفوان داوودي، دار القلم، دمشق، ط الأولى، ١٤١٢هـ.

❖ مفهوم تجديد الدين، بسطامي محمد سعيد، دار الدعوة، ط. الأولى، ١٤٠٥هـ.

❖ ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، ابن الزبير الغرناطي، ت: سعيد الفلاح، دار الغرب الإسلامي، ط. الأولى، ١٤٠٣هـ.

❖ المنافقون في القرآن الكريم، عبدالعزيز الحميدي، دار المجتمع، ط الأولى ١٤٠٩هـ.

❖ المنافقون في القرآن الكريم، محمد يوسف حسن، دار التوزيع والنشر الإسلامية.

❖ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين البقاعي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط الأولى، ١٣٩٥هـ.

❖ النفاق آثاره ومفاهيمه، عبدالرحمن الدوسري، دار الأرقم، الكويت.

❖ النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين ابن الأثير، ت: طاهر الزاوي ومحمود الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت.

❖ نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار، محمد بن علي الشوكاني، دار الجيل، بيروت، ط. ١٩٧٣م.

❖ نيل المرام من تفسير آيات الأحكام، صديق حسن خان، جامعة تعليم الإسلام،

باكستان.

فهرس الموضوعات